ساعدت وزارة التربية والتعليم على نشره

فلسفة اخوان الصفاء

الاجتماعية والاخلاقية

فؤاد البعلي

مطبعة المعارف ـ بغداد
١٩٥٨

ساعدت وزارة التربية والتعليم على نشره

فلسفة اخوان الصفاء

الاجتماعية والاخلاقية

فؤاد البعلي

مطبعة المعارف ـ بغداد
١٩٥٨

شبكة كتب الشيعة
shiabooks.net
mktba.net رابط بديل

الإهداء

الى أخي رؤف

« يجب أن يكون للباحث قلب فارغ من الهموم والغموم ، ونفس زكيـة طاهرة من الاخـلاق الرديئة ، وصـدر سـليم من الاعتقادات الفاسدة • غير متعصب لمذهب أو على مذهب ، لان العصبيـة هى الهوى ، والهوى يعمى عين العقل وينهى عن ادراك الحقائق ••• » •

رسائل اخوان الصفاء ج ٣ : ٣٥٢

مقدمة

بقلم الدكتور البير نصرى نادر

ان من يتتبع تاريخ الفكر البشرى يلاحظ ان الحركات الفكرية الكبيرة غالبا ما تقوم على اثر هزات سياسية واجتماعية عنيفة • فقد فكر افلاطون فى تشييد جمهوريته المثالية عندما شاهد الفوضى السياسية الضاربة أطنابها فى بلاده • وحاول اوجست كونت فى القرن التاسع عشر ، أن يشيد المجتمع على أسس فلسفية جديدة بعدما ذاقت فرنسا الامرين من الاضطرابات السياسية والاجتماعية على اثر الثورة الفرنسية •

كأن كل خلل فى التوازن السياسى والاجتماعى هو بمثابة حافز يدفع الفكر للبحث عن استرداد التوازن ، أو البحث عن توازن يقوم على أساس جديد بعد فشل الاساس السابق • ولكن هل يوفق الفكر دائما فى العثور على الاسس الصحيحة التى يقوم عليها هذا التوازن المنشود ؟ لا شك فى ان كل محاولة صادقة يقوم بها الفكر مفيدة سواء أكانت عاجلا أم آجلا •

والاضطرابات السياسية والاجتماعية التى عمت العصر العباسى ، لا سيما فى أواخر القرن الثالث الهجرى والقرن الرابع ، كانت سببا فى تكوين وظهور جماعة « اخوان الصفاء وخلان الوفاء » الذين حاولوا أن يصلحوا الاخلاق والمجتمع والحكم • واذا كانوا قد طمعوا فى الحكم فكان ذلك لثقتهم بصدق رسالتهم وبصحة مبادئهم •

لقد أراد افلاطون أن يكون حاكم المدنية الفاضلة فيلسوفا ؛ كما وأراد اوجست كونت أن يكون رائد الانسانية العالم الفيلسوف • وكان يريد اخوان الصفاء أن يحكم الناس أعلمهم لان أعلمهم أفضلهم • وهذا ما كان يصبو اليه بعض مفكرى المعتزلة قبل اخوان الصفاء •

ومن الطبيعى ان تصادف مثل هذه الحركات رد فعل فى كل مجتمع بشرى من قبل من فى يدهم زمام الحكم ؛ حتى ولو كانوا أجهل الجهلاء • ولكن يستحيل على مثل هذا الاضطهاد أن يقضى قضاء تاما على الفكرة الصالحة المفيدة للمجتمع • يمكنه أن يكتمها دون أن يعدمها • اذ ان الخير دائما يجارى الشر فى كل مجتمع بشرى • وغالبا ما يزداد الخير قوة من جراء ما يلاقيه من مقاومة •

وهذا ما يؤكد عليه بوضوح الاستاذ فؤاد البعلى فى بداية بحثه القيم هذا عن اخوان الصفاء • فانه يستعرض فى الصفحات الاولى من بحثه حالة التدهور التى وصلت اليها الدولة فى القرن الرابع الهجرى والتى كانت سببا فى تحفز اخوان الصفاء وتكاتفهم على اصلاح المجتمع والاخلاق وتشييدهما على اسس علمية متينة •

يقول ، وبحق ، انه لا يزال من الصعب على الباحث أن يعرف بالضبط تاريخ تكوين هذه الجماعة ، ولا أسماء أعضاءها اللهم الا من يذكرهم بعض المترجمين لمشاهير الحكماء مثل القفطى • ثم يذكر الاستاذ البعلى نظام هذه الجماعة ؟ الامر الذى يذكرنا بنظام قبول الرهبان فى الاديرة عند المسيحيين ؟ انه لنظام فيه من الشدة ما يضمن استعداد الاخ الجديد وصدق نيته فى الاندماج مع الجماعة •

وبعد ذلك يتطرق الاستاذ الباحث الى الرسائل ويذكر ما جاء فى عددها والغرض من كتابتها ، ومحتوياتها ، واسلوبها ، ذاكرا ايضا « الرسالة الجامعة » التى هى ملخص للرسائل كلها •

يعترف « الاخوان » بفضل الفلسفة اليونانية على الفكر البشرى ؟ وكان قد هاجر بذلك من قبلهم الكندى فيلسوف العرب • ويقولون : « انه متى انتظمت الفلسفة اليونانية والشريعة الاسلامية فقد حصل الكمال » • وبهذه المناسبة يتتبع الاستاذ البعلى مختلف المدارس الفلسفية اليونانية التى استقى من مناهلها اخوان الصفاء • فجاءت رسائلهم بمثابة موسوعة شاملة لمختلف العلوم • لقد فتح اخوان الصفاء صدورهم لكل علم ، وكل مذهب يبحثونه ويمحصونه مدققين فيه • ويذكر كاتب هذا البحث هذه الميزة الحسنة التى تميز بها اخوان الصفاء ، وهى تدل على افق واسع فى التفكير •

★ ★ ★

ركز الاستاذ البعلى بحثه هذا فى نقطتين مهمتين ، وهما فلسفة

اخوان الصفاء الاجتماعية وفلسفتهم الاخلاقية وخصص لكل منهما ستة فصول .

يستهل بحثه فى فلسفتهم الاجتماعية بدراسة المجتمع مبينا رأى اخوان الصفاء فى أكثر البيئة فى تكوينه ، وتصنيفهم للمجتمعات البشرية ، ورأيهم فى التعاون بين أفراده ، ثم كلامهم فى السياسة فى أوسع معانيها ، اعنى سلوك الانسان نحو الله ونحو عائلته وأصحابه . ويذكر بعد ذلك رأيهم فى الدولة ، وقولهم انه لابد للدولة من دين ولابد للدين من دولة ، فهما متلازمان (١) . لذلك كانت الرئاسة ، فى رأيهم ، روحانية وجسمانية . والصفات التى يجب أن يتصف بها الرئيس الكامل هى الصفات التى سبق أن ذكرها الفارابى فى كتابه « آراء أهل المدنية الفاضلة » .

والمدنية الفاضلة ، فى رأيهم ، لا تقوم الا على التعاون . وهم يؤكدون عليه بين طبقات المجتمع الاربع الرئيسة وهى طبقة المنتجين ، وطبقة الرئاسات ومهمتهم مساعدة (الاخوان) ، وطبقة الملوك ومهمتهم ازالة الخلاف اذا حصل واتباع الرفق واللطف مع المخالفين ، وأخيرا طبقة الالهيين ذوى المشيئة والارادة (٢) .

أما بخصوص المرأة فانهم ينظرون اليها مع شىء من الاحتقار ، ويقولون ان مكانها بين الناس مع الخدم ومع المستضعفين (٣) . وهنا

---

(١) انظر بحث « الدولة » .
(٢) انظر فصل « مدينة اخوان الصفاء الفاضلة » .
(٣) انظر فصل « المرأة » .

يحلل الاستاذ الباحث آراء مختلف الفرق والفلاسفة الاسلاميين فى المرأة ، ويأخذ على « الاخوان » قولهم فيها •

ثم يعرض طريقتهم فى التربية ويوضح الجديد فيها وما أيده العلم الحديث منها ورأيهم فى الموسيقى وفائدتها انه لرأى صائب فعلا • وأخيرا يذكر تقسيمهم للعلوم ، وطرق تحصيلها والصفات التى يجب أن يتصف بها كل من التلميذ والاستاذ •

أما بحثهم فى الفلسفة الاخلاقية فيشمل أولا على تاثير المزاج والبيئة والمناخ ودورة الافلاك على الانسان ؟ أو بالاحرى على نفس الانسان • وهذا ما يعلل الاختلاف الكبير بين الناس والشعوب فى تقدير القيم الخلقية • وقد لفت منذ القدم ارسطو والاطباء اليونانيون النظر الى كل هذه العوامل وأثرها فى أخلاق الناس •

ولكن يدافع اخوان الصفاء عن العقل ويشيدون عليه المسألة الخلقية قائلين بأنه يميز بين ما هو خير وما هو شر بذاته وان الخير يراد من اجل ذاته ، تماما مثل ما قال افلاطون ثم المعتزلة ، ومثل ما قال كنط فى القرن التاسع عشر • ففلسفة اخوان الصفاء الخلقية هى فلسفة عقلية صرف •

ثم كلامهم فى الفضيلة شبيه بالمبدأ الذى قال به ارسطو ، اعنى ان الفضيلة هى فى اختيار الوسط العدل بين افراط وتفريط كلاهما رذيلة • وفيما يتعلق باللذات نجدهم يجارون ارسطو ايضا فى تقسيمه لها ؟ وفى تفضيله اللذات الروحانية على اللذات الاخرى • فالسعادة

الحقة لا تكون الا بسعادة النفس وبالزهد .

* * *

ان هـــذا الترتيب لآراء اخوان الصفـاء ، الخاصـة بالمجتمع والاخلاق ، يدل على مجهود كبير يشكر عليه الاستاذ فؤاد البعلى لان هذه الآراء وردت مبعثرة فى رسائلهم . ووفق الاستاذ الباحث كل التوفيق فى جمعها وترتيبها هـذا الترتيب المنظم الذى يعطينـا فكرة واضحة عن آرائهم فى هذين المبدأين . وللباحث الفضل فى مقارنة هذه الآراء بآراء من سبقهم ومن لحقهم من المفكرين ، الامر الذى يبرهن على سعة اطلاع الباحث . ونتنظر ايضا منـه ما وعد به من ترتيب آراء الجماعة فى باقى الميادين مثل التوحيد والعالم ومختلف العلوم . فيجتمع لدينا حينئذ تفكير اخوان الصفاء فى مختلف نواحيه ، وهم من الفرق التى لا تزال تحتاج الى البحث .

وانا نجد فى نشر هذا البحث الاول فى فلسفة اخوان الصفاء الاجتماعيـة والاخلاقيـة فائدة كبيرة للمشـتغلين فى تاريخ الفـكر الاسلامى من شرقيين ومستشرقين .

بغداد فى ٦ نيسان ١٩٥٥

البير نصرى نادر
استاذ الفلسفة بجامعة بيروت الاميركية
ورئيس قسم الفلسفة فى كلية العلوم والآداب
ببغداد سـابقا

كلمة المؤلف

بينى وبين (اخوان الصفاء) علاقة قديمة ، ترجع الى سنوات عديدة • فقد تعرفت بهم يوم طالعت (رسائلهم) ، فوجدتها شاملة لجميع الموضوعات ، وباحثة فى جميع العلوم • فهى ، فى الحقيقة ، مدرسة سيارة ، تعطيك دروسا فى كل علم وأدب وفن ورياضة ، وتغنيك عن مطالعة فلسفة الفيثاغوريين وأرسطو وأفلاطون وابيقورس وأفلوطين ، وتكفيك مشقة البحث فى امور الدين والفلسفة • ولقد أعجبت بتلك (الرسائل) ، التى هى أشبه بدائرة معارف واسعة ، ورحت أدرس حياة (اخوان الصفاء) : من يكونون ، وما هى غايتهم من هذه الرسائل العديدة الطويلة ••

وقد استمرت دراساتى عن هذه الجماعة مدة طويلة • ورأيت من مطالعاتى لكل ما تيسر لى من الكتب القديمة والحديثة انها تكاد لا تعرف عنهم شيئا ، وان كل ما كتبته لا يتعدى الاشارات والفروض والاستنتاجات • وقد أعطيت للباحثين بعض الحق ، لا سيما وانه ليس لديهم من مصادر هامة ووثائق معتمد عليها غير (رسائل اخوان

الصفاء) • وأما ما عدا ذلك فلا يمكن الاطمئنان اليه تماما ، وهـذا ما وجدته بنفسى ، حينما بدأت أبحث فيهم ، اذ وجدت صعوبات كثيرة فى ابداء رأى ، أو فى تحقيق فكرة ، أو فى مناقشة رأى قيل عنهم قديما • ذلك ان اخوان الصفاء جماعة سرية كتمت أسماء أعضائها ، وظل التاريخ لا يعرف عنها شيئا حتى اليوم •

ان المراجع العربية والاجنبية على السواء لم تأت بجديد ، وكل ما عدا ذلك فنصوص من (الرسائل) وفروض وأحكام • وان كانت بعض تلك المراجع قد حاولت الربط بين النظام الاجتماعى والحكم القائم آنذاك وبين أهداف هذه الجماعة ، غير ان هذا الربط كان فى أكثره غير موفق • ودائرة المعارف الاسـلامية ، التى أشرف عليهـا المستشرقون والمؤرخون الاجانب ، اعترفت بأنها لا تعرف شيئا عن كيان ونشاط اخوان الصفاء السياسى •

ولعل أهم ما يشغل بال المفكرين والباحثين باخوان الصفاء هو علاقتهـم بالحركات الاجتماعيـة الاخـرى • فقـد اختلفت الآراء وتضاربت ، وكادت لا تتفق على شىء • ومن هـذا الاختـلاف فى الآراء ، والتضارب فى الاقوال ، استطعت أن أشق طريقى الى رأى عن تلك الجماعة • فقد كان الطريق وعرا شـائكا ، استغرق منى اعداده واتمامه واكماله والوصول الى ذلك الرأى جهدا عنيفا • فقد درست كل تلك الاقوال واطلعت على جميع المصادر ، التى اعتمدوا عليهـا ، فوجدت ان قسـما من هؤلاء الباحثين أبدوا آراءهم دون

تمحيص ودراسة أو دليل ملموس مقبول • ولم أكتب رأيى الا بعد أن قدمت له الدلائل والشواهد والبيانات والحجج • ولا استطيع ، فى الواقع ، أن أقول ان ما توصلت اليه هو الكمال ، ولكن أقول اننى أردت الاقتراب من رأى صحيح قريب من الحقيقة •• فحاولت ذلك • ومن يدرى لعل هناك من يستطيع أن يكشف لنا حقيقة اخوان الصفاء ، ويبين أخطاءنا أو يؤكد أقوالنا • ان البحث فى الامور الاجتماعية يحتاج الى جهد ، ودراسة مضنية طويلة ، وتجربة ، وعمق فى التفكير ؛ وقوانين العلوم الاجتماعية غير مستقرة دوما ، فهى قابلة للطعن ، ومعرضة للتحوير أو الزيادة • اذ ان هذه العلوم تدرس الظواهر التى تتعلق بحياة الفرد أو الجماعة ، وهى ظواهر تختلف بحسب المكان والزمان والبيئة ، وتؤثر فيها العواطف والانفعالات ، فليس من السهولة وضع نظام أو قانون لها • وهذا على نقيض العلوم الطبيعية والكيمياء والرياضيات ، اذ من السهولة أن تحصل على معادلة أو قانون ثابت • فاذا عرفنا هذا ، وعلمنا ان اخوان الصفاء جماعة سرية نجهل عنها الشىء الكثير ، أدركنا لماذا يزداد الخطأ فى مثل هذا الموضوع ، ويكثر التضارب فى الاقوال والآراء •

وفى العربية صدرت كتب كانت تميل الى دراسة اخوان الصفاء من الوجهة التاريخية فقط ، وبعضها نقلت بعض فصول الرسائل أو بعض كلامهم منها • وقد أخطأ قسم من هذه الكتب فخلط بين موضوعات الفلسفة ، وأخطأ فى وضعها فى الموضع المناسب لها ، فيما

يخص علم الاخلاق وضع فى قسم الطبيعة ، وما يخص الاجتماع وضع فى قسم الاخلاق ، وصفات الرئيس أو الامام أصبحت من صفات المعلم !.. وهكذا . وأنا لا أنكر ان كتابين معينين كانا موفقين فى العرض التاريخى[1] .

ومن الكتب العربية التى صدرت أخيرا كتاب يتناول الجماعة بالطعن والشتم ، ويوجه اليهم التهم ، ويكيل السباب . وقارىء هذا الكتاب لا يمكن بأية حال أن يحصل على فكرة صحيحة عن اخوان الصفاء . هذا بالاضافة الى ان هذا الكتاب ابتعد ، بمثل تلك الالفاظ وذلك الاسلوب ، عن البحث الموضوعى . فالبحث العلمى الصحيح هو الذى يعتمد على الحقائق ، ويذكرها مجردة عن كل غرض ، وأن ينزه الباحث نفسه وصدره عن كل ضغينة أو كراهية ، أو ميل أو هوى ؛ عليه أن يضع الحقيقة نصب عينيه ، وأن يكون اسلوبه علميا بعيدا عن التهكم والسخرية والسب والشتم والطعن . فنحن اليوم بحاجة الى البحث العلمى الرصين فى كل جانب من جوانب الحياة .

* * *

---

(١) اعتمد الدكتور عمر فروخ ـ فى كتابه عن اخوان الصفاء ـ على الرسائل فى عرض أفكارهم ، وكان موفقا على الرغم من ان نصوصا كثيرة قد فاتته ، ومواضيع عديدة كان يجب أن يذكرها أو يبحثها .

ان فى (الرسائل) نقاطا ومواضيع تستحق الدراسة ، ولا سيما فى الاخلاق والاجتماع ؟ وبعض تلك الموضوعات تدرس اليوم فى الجامعات • وقد لاحظت ان لاخوان الصفاء آراء تقترب من آراء علماء الاجتماع وعلماء النفس المحدثين والمعاصرين • وقد فات الكثيرين من الباحثين فى هذه الجماعة أن يذكروا ذلك ، أو أن يبينوا اضافات اخوان الصفاء للفلسفة ، وهى اضافات وان كانت قليلة الا انها غزيرة وعظيمة • ونحن تهمنا الافكار ، ويهمنا من البحث كيفيته وليست كميته • وقد رأيت أن اسجل تلك الموضوعات والآراء مع غيرها فى كتاب ، فكان هذا الكتاب ، الذى كان يجب أن يصدر قبل ثلاث سنوات ، عندما انتهيت من كتابته •

وانت ترى فى الكتاب فصولا مرتبة ، ومواضيع متتابعة ، وأفكارا متسلسلة ؟ وقد لا تدرى انها كانت مبعثرة فى الرسائل ، من غير تنظيم ، وفى غير مكانها الحقيقى ، مما استغرق جمعها وترتيبها وتبويبها فترة طويلة •

وانت لا تجد فى هذا الكتاب آراءهم فقط ، بل تجد شرحا لها ، وتعليقا على معظمها ، ومقارنتها بأفكار الفلاسفة السابقين والمحدثين والمعاصرين • ولم أترك نقطة مهمة دون أن أتطرق اليها •

* * *

بقيت نقطة أحب أن أذكرها ، وهى تتعلق بمقدمة الكتاب الخاصة بالتاريخ • لقد كان فى نيتى ألا أكتب شيئا فى التاريخ ، وانما

أعرض الافكار الفلسفية فقط ؛ لان كتابى فى الفلسفة وليس فى التاريخ • ولكنى قررت فى الاخير البحث فى تاريخ هذه الجماعة باقتضاب ، ولكنه اقتضاب واضح ، ليكون القارىء ، قبل أن يطالع أقوالهم وآراءهم ، على علم بحركتها وأهدافها •

★ ★ ★

هذا البحث سيكون فاتحة وتوطئة لبحث دقيق قادم آخر يبحث فى الله ، والعالم ، والطبيعة ، والنفس ، والرياضيات عند اخوان الصفاء •

وبعد ، فأرجو أن أكون قد وفقت فى عملى هذا •

١٩٥٥-٣-٣٠

فؤاد البعلي

إخوان الصفاء

عصر اخوان الصفاء :

لم تكن الدولة العباسية قوية فى أساسها حتى تكون قوية فى بنائها وكيانها • ومع ذلك فقد استمرت فى التقدم ، وفتحت بعض البلدان ، وانضمت شعوبها الى الاسلام ؛ ثم ألقت السلاح • فلقد أتعبتها الحروب وأنهكتها ، وراحت تنظم الوضع الداخلى •

لم تكن هناك وحدة متينة تجمع شعوب البلدان المفتوحة والمغلوبة على أمرها • ان الدين وحده لا يكفى ، واللغة وحدها لا تؤدى الى التآلف والتعاون والوحدة ؛ فهناك التاريخ ، وهناك الدم ، وهناك الجنس ، وهناك التربة •• كل هذه كانت تقف عقبة صلبة كأداء امام اتحاد حقيقى متين • فاطلاق اسم « الامبراطورية » كان بعيدا عن الواقع !

* * *

قامت الدولة العباسية عى أكتاف الفرس ، اذ ان هؤلاء كانوا يكرهون الامويين كثيرا ، ويمقتونهم ، كما انهم استغلوا الكراهية الموجودة بين العباسيين والامويين فمالوا الى العباسيين وأيدوهم فى دعوتهم ، وآزروهم فى أهدافهم ، وتعاونوا معهم على تأليف دولة جديدة على أنقاض الدولة الاموية •

ولم يستطع المنصور ، ولا الرشيد ، ولا غيرهما أن يبعدوا أثر الفرس • واذا كان اولئك الخلفاء قد اغتالوا وقتلوا وأبعدوا بعضا منهم ، فان ذلك قد زاد من اقترابهم للدولة العباسية • كما ان المأمون والخلفاء الذين جاءوا بعده ، ولا سيما فى العصر العباسى الثالث « أى فى عهد البويهيين » ، قد شجعوا اقترابهم هذا ، بل فسحوا لهم فى الطريق ، بل وقربوهم ـ ايضا ـ اليهم والى قصورهم والى قلوبهم !

ولا نستطيع أن نتهم الفرس بأنهم أغبياء • فاننا نرى فى بطون حوادث التاريخ الاسلامى انهم أذكى الشعوب التى وقعت تحت الحكم الاسلامى • فقد برز فريق منهم فى الادب ، وفريق فى السياسة ، بل وفى شتى المجالات ؛ وكانوا الطليعة والمعول الاول لهدم الدولة العباسية •• الدولة التى قامت على أكتافهم !

هذه الطليعة كانت كافية لان تجر وراءها أشخاصا آخرين ، وهكذا زاد اقترابهم •• وهكذا كاد الامر أن يكون بيدهم ••

لم يكن هؤلاء الفرس أغبياء اذن ، فقد استطاعوا أن يستميلوا الخلفاء بالرغم مما حدث ، وأن يكرّهوا اليهم العرب •• عنصر الخلفاء الاول ، وأن يبعدوا رجال العرب عن الاقتراب الى الحكم ، وأوصوا الخلفاء بألا يعتمدوا عليهم حتى ولا على جيوشهم •• وكان لهم ما أرادوا !

ان الفرس كانوا يتذكرون دولتهم العظيمة التى انهارت تحت سيوف المسلمين وراية الدين الجديد • كانت هذه الذكرى تحز فى

قلوبهم ، فتدفعهم الى الانتقام وتقويض الدولة العباسية التى شيدوها على أكتافهم ، وانشاء دولة جديدة ـ ان أمكن ـ من الفرس .. الحلم البعيد الذى كان يراودهم ..!

وراحوا يستعينون بالفرق التى ظهرت آنذاك ـ والتى كان لهم نصيب فى ظهورها ـ ، وبالتكتلات السرية التى كانت تصبو الى ملك ، فدخلوا فيها وساعدوا على نموها وازدهارها .

كان الفرس ، اذن ، يتوسلون بوسائل عديدة للوصول الى هدفهم .

* * *

ان المعتصم ظن ، أو لعله كان يظن ، ان التعاون مع الاتراك طريقة صالحة للحكم ، فاعتمد عليهم ، بل وألف جيشا منهم .

وهكذا زاد الطين بلة ، فدخل عنصر جديد لم تكن مطامعه أقل من مطامع الفرس . هذا العنصر الجديد استهتر بالحكم ، يقتل هذا ، ويعزل ذاك ، ويولى من يريد ..

ووصل المتوكل الى الحكم . ولم يكن أحسن من المعتصم . فقد كان عهده فاتحة فوضى واضطراب . ولم يطرد الاتراك ، بل قسا على العرب ! . وفى عهده انتشرت بذور الفتنة ـ الطائفية العمياء ـ ، وحورب الشيعة وعوملوا معاملة سيئة .. كما هدم قبر الحسين بن على بن أبى طالب فى كربلاء ، ودمرت المنازل التى حوله ، مما أثار الناس ، فكتموا ألمهم فى صدورهم ..

كل هذا واستبداد الاتراك واستهتارهم بالحكم لا يزال مستمرا ، هذا الاستهتار الذى دعاهم الى قتل المتوكل نفسه ..!

وازداد الوضع سوءا وحراجة فى عهد المقتدر « أوائل القرن الرابع الهجرى » ، وعهد المستكفى . حتى فتح بغداد « أحمد بن بويه » ، حوالى (٣٣٤) للهجرة ، وصار الحاكم الفعلى ، بعد أن عين « معز الدولة » وزيرا له .

* * *

هذا هو الحال السياسى القائم آنذاك ..

ولقد ساعدت على حراجة الموقف وفساد الحكم وضعف الدولة العباسية وزوالها عوامل كثيرة ، غير التى ذكرناها ، أهمها :

(١) كان الجيش « فى عهد معز الدولة » يجبى الضريبة بالقوة من الناس ليسد حاجاته ومصروفاته ..

(٢) الخلاف القائم بين الجيش نفسه « المكون من الديلم والترك » .

(٣) اتبع بنو بويه طرقا عديدة لتشجيع وتأييد الشيعة ، وبث مذهبهم بين الناس ، مما حدا بكثير من الناس أن يقتتلوا فيما بينهم .

(٤) كثرة الثورات والاضطرابات التى وقعت فى البلدان الخاضعة للدولة العباسية .

(٥) ترف الخلفاء ، واهتمامهم باللهو والجوارى وتربية الخصيان !

(٦) تدخل النساء والجوارى ، وأحيانا الخصيان ، فى الادارة والسياسة .

(٧) تدخل الجيش فى السياسة .

(٨) افلاس بيت المال .

(٩) ضعف الادارة ، وعدم كفاءة ونزاهة الموظفين .

(١٠) التناحر بين الطبقات ..

(١١) سوء الاحوال الاجتماعية ، وانتشار نظام الاقطاع ..

(١٢) سوء الاحوال الاقتصادية بين عامة الناس .

فالاحوال العامة فى هذا العهد كانت سيئة ، ولا سيما الحالة الاقتصادية التى كانت فى غاية السوء . ومما ساعد على تذمر الناس وسخطهم وغضبهم على الدولة افساحها فى المجال لظهور « الرأسمالية » ونظام الاقطاع .. فتكتل الناس والعمال ، على الاخص ، وتعاونوا بينهم ، فظهرت الحركات الاجتماعية .. ومنها حركة اخوان الصفاء .

* * *

وعلى نقيض الحالة السياسية والاقتصادية ، كانت الحالة الثقافية والرقى الفكرى . ولعل الترجمة التى عظمت فى عهد المأمون ـ خصوصا ـ ومن بعده ، كانت العامل الاول لهذا الرقى .

هذا الرقى يظهر فى شعر المعرى والمتنبى ، هذا الشعر الذى كان متسما مشبعا بالروح الفلسفى . اذ ان المعرى قد تفلسف فى شعره ، وبحث فى حياة الانسان : كيف يحيا ، لماذا يعيش ، لماذا

يموت ، أين يذهب بعد موته ، وما العالم ، وما الخلق • كما ان المتنبى كان متأثرا الى حد بعيد بأرسطو ، يظهر ذلك من « أبياته » الكثيرة التى تتشابه مع أفكار أرسطو ولا سيما فى الاخلاق •

كما ان هذا الرقى يظهر ـ ايضا ـ فى فلسفة الكندى ، والفارابى ، وابن سينا ، والطوسى ، واخوان الصفاء ، والغزالى ••

هذا الرقى الفعلى ظهر واضحا ووجد له الحرية بالرغم من بعض الناس والمؤرخين الذين كانوا يعدون الفلسفة نوعا من الالحاد • فقد قال ابن تيمية مثلا : « ما أظن الله يغفل عن المأمون ، ولابد أن يعاقبه على ما أدخله على هذه الامة » !

★ ★ ★

هكذا كان الحال فى زمن العباسيين •

ثقافة راقية ، وفكر حر ، وتجديد علمى وأدبى وفلسفى •

ثم •• ثم أساس يتآكل ، وبناء يتداعى ، وكل يريد أن يحتفظ لنفسه بقسم أو بشىء من هذا البناء المتداعى المنهار ••

ازداد الراغبون والطامعون ، اذن ، بعد أن زحف الى الدولة العباسية التعب والاعياء والكلل ، فكثرت الدول الاسلامية الصغيرة ، أو الدويلات المتعددة ، وظهرت بينها العداوات والحزازات والاختلافات والمنافسات ! • فقد كان العراق بيد الديلم ، والاندلس كان يحكمها الامويون « ثم قل نفوذهم بعد ذلك » ، وبعض أقسام البصرة بيد القرامطة ، وفارس بيد على بن بويه ، وطبرستان بيد العلويين ، كما

تمركز آل سامان فى خراسان و « ما وراء النهر » ، وآل سبكتكين فى الهند وأفغانستان ، والعبيديون حكموا افريقيا ، وكانت مصر تحت حكم الاخشيديين ، وكانت حلب تحت حكم سيف الدولة .. الخ . فلا عجب ، بعد هـذا ، أن يقوم « اخوان الصفاء » بدعوة جـديدة ، ويطمعوا فى ملك جديد .

* * *

فى هذه البيئة المضطربة ، فى هـذا الانقسام الكثير الكبير فى الدولة الاسـلامية ، فى هـذا العصر الذى تشـبع بالافكار والآراء الفلسفية ، نشأ اخوان الصفاء (فى البصرة) وظهروا (فى بغداد) وانبثوا بعد ذلك فى كل مكان من العراق .

ان منتصف القرن الرابع الهجرى وما بعده شهد هذه الحركة بوضوح ، فقد انتشـرت انتشـارا كبيرا ، حتى ان أصحاب السلطة المدنيـة « فى خلافة بنى العباس » اضطهدوا قسما من « الاخوان » وطاردوهم ، مما زاد فى نشـاطهم السرى ، فكونوا جماعات وخلايا وحلقات انتشرت فى طول البلاد وعرضها . ولعل هذا الاضطهاد كان سببا قويا فى كتابة ونسخ « الرسائل » وتوزيعها .

* * *

- ٢ -

تعريف باخوان الصفاء :

من هم اخوان الصفاء ؟ : اخوان الصفاء جماعة تآلفت بالعشرة ، وتصـافت بالصـداقة ، واجتمعت على القدس والطهـارة والنصيحة

والتعاون ، بعد أن كتموا أسماءهم(١) .

اجتمع هؤلاء « على تصنيف كتاب فى أنواع الحكمة الاولى ، ورتبوه مقالات .. مشوقات ، غير مستقصاة »(٢) .

الاسم :

وعلى هذا فان اسم « اخوان الصفاء » جاء من ذلك التآلف والصفاء والتعاون والنصيحة .

ومع ذلك فان هناك روايات كثيرة مختلفة . ففريق من المؤرخين يرى ان الاسم جاء فى الادب العربى الجاهلى ، ولا سيما الشعر ، ولا يستبعد أن يكونوا قد تأثروا به ، كقول أوس بن حجر :

لعمرك ما آسى طفيل بنفسه
بنى عامر اذ ثابت الخيل تدعى
وودع اخوان الصفاء بقرزل
يمر كمريخ الوليد المقزع

وقال الفقعسى :

اولئك اخوان الصفاء رزئتهم
وما الكف الا أصبع ثم أصبع

ودائرة المعارف الاسلامية تجد ان هذا الاسم له علاقة بغايتهم ، التى كانت السعى الى سعادة « نفوسهم الخالدة » .

---

(١) ارجع الى كتاب « المقابسات » لابى حيان التوحيدى ص ٤٥ ـ مثل هذه الالفاظ تتكرر فى رسائل اخوان الصفاء .

(٢) انظر القفطى « جمال الدين بن الحسن » : تاريخ الحكماء ص ٨٢ـ٨٨ .

وغولدسهير ، وغيره كثيرون ، يرون ان اسم اخوان الصفاء أخذ من قصة الحمامة المطوقة المذكورة فى كتاب « كليلة ودمنة » ، والتى يذكرها اخوان الصفاء فى رسائلهم (١) .

وقد يكون واحد من « اخوان الصفاء » ألقى بهذا الاسم فى اجتماع من اجتماعاتهم السرية ، فلقى قبولا حسنا وأخذوا به .

غير انى أعود فأقول ان اسمهم جاء من دعوتهم الى النصيحة والتآخى ، ونتيجة لتعاونهم وتآلفهم وصفاء صداقتهم . وفى رسائلهم كلمات كثيرة تدل على ذلك التعاون والتآخى . ففى الجزء الثالث (ص ٢١) تقرأ ما يأتى : « .. فهلم مجلس اخوان لك نصحاء أو اصدقاء لك كرماء فضلاء .. » ، وفى الجزء الرابع (ص ٨٥) : « واعلم أيها الاخ البار الرحيم أيدك الله وايانا بروح منه ، انا نحن جماعة اخوان الصفاء أصفياء ، وأصدقاء كرام .. » . ثم انظر قولهم فى الجزء الرابع (ص ١٧٩-١٨٠) : « واعلم انه ليس من جماعة يجتمعون على المعاونة فى أمر من أمور الدين والدنيا أشد نصيحة بعضهم لبعض ولا أحسن من معاملة اخوان الصفاء .. وذلك ان كل واحد منهم يرى ويعتقد انه لا يتم له ما يريده الا بمعاونة أخيه ، وكل واحد منهم يريد ويحب لاخيه ما يحب ويريد لنفسه ... » (٢) .

---

(١) انظر الرسائل : ج ١ : ص ٦٢-٦٣ .

(٢) انظر ايضا ج ١ : ٦٢-٦٣ ، ١٣١ . ج ٢ : ١٩ . ج ٣ : ٩٢ . ج ٤ : ٩٩ ، ١٠٢ ، ١٠٧ ، ١٢٧ ، ٢١٨-٢١٩ ، ٢٤١-٢٤٢ .

الاعضاء :

لم يستطع التاريخ أن يقدم الينا معلومات كافية عن هذه الجماعة وأعضائها • وليس لنا مصدر تاريخى غير كتاب « تاريخ الحكماء » للقفطى الذى اعتمد ـ فى كلامه عن اخوان الصفاء ـ على التوحيدى فى كتابه « المقابسات » • قال القفطى :

« •• ولما كتم مصنفوها اسماءهم ، اختلف الناس فى الذى وضعها • فكل قوم قالوا قولا ، بطريق الحدس والتخمين • فقوم قالوا : هى من كلام بعض الائمة من نسل على بن أبى طالب (كرم الله وجهه) واختلفوا فى اسم الامام الواضع لها اختلافا لا يثبت له حقيقة • وقال آخرون : هى تصنيف بعض متكلمى المعتزلة فى العصر الاول • ولم أزل شديد البحث والتطلب لذكر مصنفيها ، حتى وقفت على كلام لابى حيان التوحيدى ، جاء فى جواب له عن أمر سأله عنه الوزير صمصام الدولة بن عضد الدولة ، فى حدود سنة ثلاث وسبعين وثلثمائة (أو ما يعادل ٩٨٣ ميلادية) عن زيد بن رفاعة ••• فقال أبو حيان : « هناك ذكاء غالب ، وذهن وقاد ، مع كتابة بارعة فى الحساب والبلاغة ••• وهو لا ينسب الى شىء ، ولا يعرف له حال ، حيث انه تكلم فى كل شىء •• وانه أقام بالبصرة زمانا طويلا ، وصادق بها جماعة لاصناف العلم وأنواع الصناعة منهم :

ـ أبو سليمان محمد بن معشر البستى « المعروف بالمقدسى » •
ـ أبو الحسن على بن هارون الزنجانى •
ـ أبو أحمد المهرجانى •

ـ أبو الحسن « العوفى » ... » .

فالقفطى يذكر ، استنادا الى التوحيدى ، خمسة أسماء لاعضاء هذه الجماعة ، ولم يذكر غيرهم (١) .

ويقال ان المعرى قد اتصل كثيرا بجماعة اخوان الصفاء ، يبدو ذلك فى كثير من أبياته الشعرية ، ولا سيما قوله :

واذا أضاعتنى الخطوب فلن أرى
لوداد اخوان الصفـاء مضيعـا

والدكتور طه حسين (٢) وبعض المفكرين والمؤرخين يؤكدون تلك الصلة .

هؤلاء هم فقط الذين عرفوا قديما ـ وحديثا ـ . أما غيرهم فلا يزالون بحكم سريتهم غير معروفين !

غير ان أعضاء اخوان الصفاء كانوا منتشـرين فى البـلاد . والرسـائل تشـير الى ذلك فى صفحات كثيرة (٣) . وكان من بين الاعضاء المتفرقين أبناء ملوك وأمراء ووزراء وعمال وكتاب ، ومنهم طائفة من أولاد الاشراف والدهاقين (٤) ، والتناء (٥) ، ومنهم أولاد

---

(١) تاريخ الحكماء : ص ٨٢ـ٨٨ .

(٢) انظر مثلا : ذكرى ابى العلاء ـ ص ١٩٢ .

(٣) انظر ج ١ : ١٦٩ ، ٣٠٨ ، ٣٣٠ ، ٣٦٢ . ج ٢ : ١٩ . ج ٤ : ١٩٧ ، ٢١٤ـ٢١٥ ، ٢٤٢ .

(٤) الدهاقين : جمع (دهقان) بكسر الدال وضمها ، وهى كلمة فارسـية معناهـا حاكم المنطقة ، وتشـبه الى حد بعيـد كلمة (المتصرف) التى نستعملها اليوم فى العراق .

(٥) التناء : المرابطون .

العلماء والادباء والفقهاء وحملة الدين .. الخ [1] .

ويعترف اخوان الصفاء بأن هؤلاء ليسوا على درجة واحدة من الذكاء ، ولذا فهم يتبعون مع كل واحد منهم معاملة خاصة [2] . ولهؤلاء مجالس خاصة يجتمعون فيها فى أوقات معلومة لا يداخلهم فيها غيرهم ، « يتذاكرون علومهم ، ويتحاورون أسرارهم .. » [3] . وكان يحضر كل اجتماع من اجتماعاتهم أحد الاعضاء البارزين ، ترسله اللجنة المركزية ، لينوب عنها فى خدمتهم بالقاء النصيحة ، وليكون عونا لاخوانه [4] .

الاعضاء الجدد :

هل كان اخوان الصفاء يرغبون فى زيادة عدد أعضائهم ، بقبول أعضاء جدد باستمرار ؟

الحقيقة ، اننا لا نجد نصوصا صريحة غير ما ورد فى رسائلهم ، اذ لم يوضح أحد من المؤرخين ذلك بأكثر مما وضحته الرسائل [5] ، وهذه النصوص تدلنا على أنهم كانوا يريدون أعضاء كثيرين ليزداد نفوذهم .

---

(١) ج ٤ : ٢١٤ـ٢١٥ ، ٢٣٥ـ٢٣٦ .

(٢) ج ٤ : ١٩٧ ، ٢٨٢ .

(٣) ج ٤ : ١٠٥ـ١٠٧ .

(٤) ج ٤ : ٢١٤ـ٢١٥ ، ٢٣٥ـ٢٣٦ .

(٥) ج ١ : ١٣١ . ج ٣ : ٢٩٧ ، ٤١٩ . ج ٤ : ٨٥ ، ٩٩ ، ١٠٧ـ١١٢ ، ١٧٩ـ١٨٠ ، ١٨٧ ، ١٩٧ـ٢٠٠ ، ٢٠٢ ، ٢٢٥ـ٢٢٧ ، ٢٣٦ ، ٢٤٢ .

ومن تلك النصوص ان العضو « الاخ » اذا أراد أن « يتخذ صديقا مجددا أو أخا مستأنفا أن يعتبر أحواله ، ويتعرف أخباره ، ويجرب أخلاقه ، ويسأله عن مذهبه واعتقاده ليعلم هل يصلح للصداقة وصفاء المودة وحقيقة الاخوة أم لا .. » (١) .

وعلى العضو الجديد أن يسلك مسلكهم ، ويقصد مقصدهم ، ويتخلق بأخلاقهم ، وان هفا هفوة فيجب أن تغفر له .. لان « الاخ » نادر الوجود وعزيز ، وأن يسمع أقوالهم ، وينظر فى علومهم ليفهم أسرارهم (٢) . فتعطى له رسالة رسالة للوقوف عليها (٣) . وبعد تجربة قاسية يصبح عضوا (أخا) صالحا .

مراتبهم :

لاخوان الصفاء أربع مراتب :

(١) المرتبة الاولى تتميز بصفاء جوهر النفس ، وجودة القبول ، وسرعة التصور . وتبدأ بالعضو الجديد الذى لا يقل عمره عن خمس عشرة سنة .

(٢) المرتبة الثانية تتميز بسخاء النفس ، والشفقة ، والتحنن على الاخوان . وهى مرتبة الرؤساء وذوى السياسات . وعمر الاعضاء لا يقل عن ثلاثين سنة .

---

(١) ج ٤ : ١٠٧ .
(٢) ج ٢ : ١٩ ، ٤٣ـ٤٤ . ج ٤ : ١٠٩ .
(٣) ج ١ : ٢٢ . ج ٤ : ٣٢٠ .

(٣) مرتبة الملوك ذوى السلطان والامر والنهى • والعضو لا يقل عمره عن الاربعين عاما •

(٤) مرتبة الالهيين (أو ذوى المشيئة والارادة) • وهذه المرتبة هى الرئيسة ، تتولى ادارة الجماعة ، وتوجه الجميع الى الخطط الواجبة التنفيذ • ولا يقل عمر العضو عن الخمسين عاما (١) •

ان العضو يستطيع أن يتدرج فى تلك المراتب كلما أثبت كفاءة ومقدرة •

الزمان :

لا نستطيع أن نعرف الوقت الذى ظهر فيه اخوان الصفاء على وجه الدقة • وليست لدينا اشارات وأدلة تدلنا على العام الذى ظهروا فيه • وليس لدينا غير النص التاريخى لحديث الوزير صمصام الدولة ابن عضد الدولة مع أبى حيان التوحيدى (وهذا تم فى حدود سنة ٣٧٣ هـ) • والذى نعرفه ان الرسائل لم تظهر قبل عام ٣٣٤ هـ • ولذا نستطيع أن نقول ان الزمن الذى ظهروا فيه لا يزيد ولا يقل كثيرا عن هذا العام • كما اننا لم نسمع شيئا عنهم قبل ذلك التاريخ • هذا وان معظم المصادر التاريخية تقول انهم ظهروا فى منتصف القرن الرابع الهجرى (٢) •

---

(١) ج ٤ : ١١٩–١٢٠ ، ٢٢٢–٢٢٣ • انظر فصل « المدينة الفاضلة » •

(٢) يقول De Lacy O'leary فى كتابه Arabic thought and its place in History ان ظهورهم كان حوالى (٣٦٠) هـ • (ص ١٦٤) •

المكان :

أما المكان ، فالدلائل تشير الى انهم نشأوا اولا فى البصرة (١) ، ثم ظهروا فى بغداد ، وانتشروا بعد ذلك فى جميع أنحاء البلاد .

الرسائل :

رسائل اخوان الصفاء لم تعرف قبل سنة ٣٣٤ .

وقد اختلف المؤرخون فيمن ألفها وكتبها : هل هو شخص واحد ، أم هم أشخاص عديدون ؟

ان الرسائل كثيرة ، ومتنوعة ، وظهرت فى أزمنة قريبة متعددة . لذا فان أقرب الاحتمالات الى الصحة هى انها لم تكتب من قبل شخص واحد ، بل ألفها أشخاص عديدون . وأما من هم ، فلا يزال هذا غامضا على التاريخ ، وان كان بعض المؤرخين « القدماء » قد ذكروا اسم زيد بن رفاعة كواحد من هؤلاء .

أما ان زيد بن رفاعة كتبها مع أصحابه الاربعة ـ الذين ذكرنا اسماءهم قبل حين ـ ولم يكتبها غيرهم ..

أما ان رسالة الحيوان لم يكتبها شخص واحد .. لانها تدل على اسلوب فذ قوى أخاذ ..

أما ان الرسائل ألفها أحمد بن عبدالله (الذى ينسب الى جعفر الصادق) ..

---

(١) انظر تاريخ الحكماء للقفطى . ثم انظر الرسائل ج ١ : ١٦٩ ، ٣٠٨ ، ٣٣٠ ، ٣٦٢ . ج ٢ : ١٩ . ج ٤ : ١٠٥ ، ١٠٧ ، ١٩٧ ، ٢١٤ـ٢١٥ ، ٢٣٥ـ٢٣٦ .

وأما ان الاسماعيلية تقول ان أحمد هذا هو مؤلف الرسائل .. فليس لدينا أدلة ثابتة كافية ، غير أن نقول ان من يقرأ الرسائل يجد ان الاسلوب يختلف من رسالة الى اخرى (وان تشابه فى بعضها القليل ، وان تشابهت المقدمات والاشارات كبداية الرسائل بـ : اعلم ايها الاخ ... الخ) ، وهذا مما يؤيد قولنا السابق فى ان كاتب الرسائل ليس شخصا واحدا . وقد يكون (أحمد) هذا أحد كتاب الرسائل .

عدد الرسائل :

كذلك اختلف المؤرخون والباحثون فى عدد الرسائل .

فالتوحيدى يقول انها (٥٠) رسالة . والقفطى[١] وبارتولد يقولان انها (٥١) رسالة[٢] . ودائرة المعارف الاسلامية تقول انها (٥٢) رسالة .

واذا رجعنا الى الرسائل وجدنا أقوالا متناقضة . فتارة تشير .. الرسائل ـ الى ان العدد هو (٥١)[٣] ، وتارة اخرى تشير الى

---

(١) « تاريخ الحكماء » .

(٢) ف ـ بارتولد (تاريخ الحضارة الاسلامية) ص ٤٧ . ترجمة « حمزة طاهر » .
يقول De Lacy O'leary ايضا : انها ٥١ رسالة : ص ١٦٥ من كتابه : Arabic thought and its place in History

(٣) ج ١ : ٢٨٣ . ج ٢ : ١٣٠ . ج ٣ : ٨٩ . ج ٤ : ١٢٦ ، ٢٢١ ، ٢٣٣ ، ٢٩٠ ، ٣١٩ ، ٣٢٠ـ٣٢١ .

أنه (٥٢)[١] .

وقد وجـدت تناقضا آخر . ففى الجزء الرابع (ص ٣٢٠) يقول اخوان الصفاء عن آخر رسائلهم : « .. وهى الرسالة الثانية والخمسون من رسائل اخوان الصفاء ، وهى آخر الرسائل » . بينما تجد ما يناقض هذا القول فى نفس الصفحة ، اذ تقرأ : « انا قد ذكرنا فى خمسين رسالة تقدمت قبل هذه الرسالة ... »[٢] .

وقد قلبت صفحات الرسائل للتأكد من عدد الرسائل ، فوجدت انها (٥٢) رسالة ، ما عدا الفهرست والمقدمة والرسالة الجامعة ـ التى سيأتى الكلام عنهـا ـ .

ثم ان اخوان الصفاء عند تقسيمهم للرسائل[٣] الى أربعة أقسام يقولون : ان القسم الاول الخاص بالرسـائل الرياضية والعلميـة فيه (١٤) رسالة ، والقسم الثانى الخاص بالرسـائل الجسمانية الطبيعية فيه (١٧) رسالة ، والقسم الثالث الخاص بالرسائل النفسانية فيه (١٠) رسائل ، والقسم الرابع الخاص بالرسائل الناموسية الالهية فيه (١١) رسالة . فاذا جمعنا هذه الرسائل تأكد لنا ايضا انها (٥٢) رسالة .

واذا كان الامر كذلك فيجب أن نقر به ، بالرغم من وجود تناقض فى ذكر العدد فى الرسائل نفسها ـ كما بينا ـ ، وبالرغم مما

---

(١) ج ١ : ١ ، ١٩ ، ٤٨ ، . ج ٤ : ٣٢٠ .
(٢) انظر ايضا ج ٤ : ٣٤٦ .
(٣) ج ١ : ١ـ١٩ .

يقوله البعض من أن الرسالتين الثانية عشرة والرسالة الثالثة عشرة متشابهتان وتعتبران رسالة واحدة .. لان هذا غير معقول ، اذ اننا على رأى هؤلاء باستطاعتنا أن ندمج الرسالة الحادية عشرة أيضا لان هناك تشابها ايضا ، بل اذا أردنا التعميم فباستطاعتنا أن ندمج الرسالة الرابعة عشرة ، وهذا غير صحيح ، ولم يفعل اخوان الصفاء ذلك .

فرسائل اخوان الصفاء ، فى رأينا ، هى (٥٢) رسالة .

أغراض الرسائل :

يقول اخوان الصفاء ان الرسائل كتبت لان (الاخوان) منتشرون فى كل مكان ، وهى خير وسيط بين اولئك الاعضاء ، يتداولونها ويقرأونها ، لانها حوت أسرارهم وأغراضهم (١) .

فاخوان الصفاء يقرون ان الرسائل تحوى أغراضهم ، وان (الاخ) أو العضو الذى يقرأ رسائلهم يجب أن يعلم ان الاشارات والرموز وقصص الحيوان كلها تعنى أمورا جوهرية موجودة فى والواقع ، ولذا عليه ألا يسخر من تلك القصص والرموز ، لان عادة (الاخوان) جرت على أن يكسوا الحقائق ألفاظا وعبارات واشارات كيلا يخرج بهم عما هم فيه (٢) .

ان أغراضهم تكاد تكون واضحة فى بعض نصوص الرسائل ومبهمة فى اخرى . ولكن مما لا شك فيه عندنا ان لاخوان الصفاء

---

(١) انظر مثلا ج ١ : ١٦٩ ، ٣٠٨ ، ٣٣٠ ، ٣٦٢ . ج ٤ : ١٣٢ ، ١٩٧ ، ٢٢١-٢٢٢ .

(٢) انظر مثلا ج ٢ : ٣١٧-٣١٨ . ج ٣ : ١٣٢ .

مبادىء وأغراضا يسعون لتحقيقها لو توفرت لهم الظروف وتمهدت السبل • ولا شك عندى ايضا ان الغرض الاول هو سياسى بحت ، يتمثل فى التخلص من نظام الحكم الموجود آنذاك ، على النحو الذى سنبينه فيما بعد • واذا كان اخوان الصفاء يبحثون فى كل المواضيع ، فان ذلك من جملة أهدافهم وأغراضهم للوصول الى الهدف الذى كانوا يسعون اليه ، وهو ايجاد دولة خيرة يحكمها الفضلاء والحكماء ، على حد قولهم (١) •

محتويات الرسائل :

يقول اخوان الصفاء : ان رسائلهم تبحث فى فنون العلم وغرائب الحكمة • وقد قسموها الى أربعة أقسام (٢) :

(١) القسم الاول ، رسائل رياضية تعليمية : تبحث فى العدد وخواصه ، والنسب العددية ، والهندسة ، والنجوم ، والموسيقى ، والجغرافية ، والصنائع العلمية والعملية ، وبيان الاخلاق وأسباب اختلافها وأنواع عللها • وتبحث ايضا فى المنطق ، والمقولات العشر ، والتحليل ، والحدود ، والبرهان •

(٢) القسم الثانى ، رسائل جسمانية طبيعية : تبحث فى الهيولى والصورة ، والحركة والزمان والمكان • وفى بيان ان العالم انسان كبير ، والكون والفساد ، وتكوين الجسد الانسانى • وفى

---

(١) انظر (الفصل الثالث) وتعقيبنا على موضوع التعليم •
(٢) ج ١ : ١–١٩ •

الحواس الخمس ومدى ادراكها للمحسوسات • وفى أثر الكواكب فى الجنين • وفى ماهية اللذة والالم • وفى علل اختلاف اللغات •

(٣) القسم الثالث ، رسائل نفسانية عقلية : تبحث فى كيفية نشوء الانفس الجزئية فى الاجساد البشرية الطبيعية ، وبيان طاقة الانسان فى المعارف • وفى حكمة الموت والحياة وماهيتهما • وتبحث ايضا فى المبادىء الفعلية ـ على رأى اخوان الصفاء ـ ، وفى معنى قول الفيثاغوريين ان الموجودات بحسب طبيعة العدد • وفى العقل والمعقول • وفى ماهية العشق (وهى رسالة طريفة) • وفى البعث والقيامة « الحساب » • وفى العلل والمعلولات •

(٤) القسم الرابع ، رسائل ناموسية الهية (شرعية دينية) : تبحث فى الآراء والديانات • وفى كمية الخيرات والشرور فى هذا العالم • وفى صفات الله • وفى بيان اعتقاد اخوان الصفاء وصداقاتهم • وفى ماهية الايمان وخصال المؤمنين • وفى النبوة وشروطها • وفى أنواع السياسات • وفى ماهية السحر •

وليست محتويات الرسائل كلها آراءهم وأفكارهم ، وانما هم عرضوا لكل علم وفلسفة ، بحسب خطتهم ، وبينوا آراءهم فى مجالات كثيرة •

اسلوب الرسائل :

قبل كل شىء ان الرسائل كتبت لجميع الاعضاء ، فهم منتشرون فى كل مكان من البلاد • فهى اذن ليست لجماعة دون اخرى ، أو

لفئة دون فئة . ولذا فان الرسائل يجب أن تكون ذات اسلوب واضح وسلس أخاذ . وهذا ما رأيناه في الرسائل ، فاسلوبها واضح بسيط ليس فيه صعوبات ، غير ما يعترض القارىء من بعض اشارات ورموز وقصص وحوادث يقر اخوان الصفاء ان لهـا معنى خاصا ، لان لهم أسرارا كثيرة ، ولا يستطيعون أن يبوحوا بها في ذلك الوقت ، فالتجأوا الى تلك الاشـارات والقصص والرموز والى التأويل ايضـا . وهم يطلبون من (اخوانهم) أن يأخذوهـا مأخذا حسـنا وأن يفسروها بحسب (اعتقاداتهم) ومذهبهم .

من هذا يتضح ان اسلوب الرسائل بسيط واضح سلس ، لو لا بعض الوعورة والالتواء فيما يخص أهدافهم وأغراضهم (١) .

* * *

وقد لاحظنا :

(١) ان معظم الرسائل تبدأ بهذه الجملة : « اعلم أيها الاخ ، البار الرحيم ، أيدك الله وايانا بروح منه .. » .

(٢) ان الفقرة الثانية من كل رسالة تقريبا تبدأ بـ : « واعلم أيها الاخ ، أيدك الله وايانا بروح منه .. » .

(٣) ان بداية كل فصل يبدأ بـ : « واعلم يا أخي .. » .

(٤) ان هناك جملا تستعمل أيضا بين السطور ، منهـا : واعلموا أيها الاخوان ، فاجتهدوا يا أخي ...

---

(١) انظر مثلا : رسالة الحيوان (ج ٢ : ١٥٢ـ٣١٧) . ثم انظر ج ٢ : ٣١٧ـ٣١٨ . ج ٣ : ١٣٢ .

(٥) يختم اخوان الصفاء بعض رسائلهم بالجملة الآتية (وتختصر أحيانا) : « وفقك الله وايانا وجميع اخواننا الى طريق السداد ، وهداك وايانا وجميع اخواننا الى سبيل الرشاد ، انه رؤوف بالعباد » .

وكل هذا دعوة صريحة للجماعة وللاعضاء ، ودليل آخر على ان الرسائل كتبت لهم .

الرسالة الجامعة :

لاخوان الصفاء رسالة اخرى ، جامعة ، هى ملخص تلك الرسائل كلها ، أسموها (الرسالة الجامعة) . والسبب فى تلخيصها هى ان الرسائل بمجموعها قد لا تجتمع عند رجل واحد « الا من سهل الله تعالى له ذلك ، فعملنا تلك الرسالة لتنوب عن أخواتها » .

ان اخوان الصفاء يطالبون بقراءة الرسائل اولا ثم قراءة الرسالة الجامعة بعد ذلك(١) . اذ ان هذه الرسائل كلها كالمقدمات لها ، والمداخل اليها ، والادلة عليها ، والانموذج منها(٢) . وحجتهم فى ذلك حتى ينفتح على القارىء ما انغلق من تلك الرسائل(٣) ، وتتضح الحقائق التى أشاروا اليها فى الرسائل(٤) .

فالرسالة الجامعة ، اذن ، لا تقل أهمية عن الرسائل بمجموعها ،

---

(١) ج ٤ : ٢٩٠
(٢) ج ١ : ١٩ .
(٣) ج ٤ : ٢٩٠ .
(٤) ج ١ : ١٩ .

ولذلك طالبوا من تحصل عنده تلك الرسالة ألا يضيعها بوضعها فى غير أهلها ، « وبذلها لمن لا يرغب فيها » ، بل يضعها فى حقها وألا يمنعها عن مستحقها ، « فانها جلاء وشفاء ونور وضياء .. »(١) .

★ ★ ★

وقد اختلف المؤرخون فى اسم الشخص الذى كتب الرسالة الجامعة . فقسم منهم يقول ان الرسالة الجامعة من تأليف (المجريطى) ، وقسم آخر ينفى كون هذه الرسالة من تأليفه .

ان الذى نريد أن نقوله :

(١) ان المسألة ليست مسألة تأليف ، وانما مسألة تلخيص تلك الرسائل (٢) .

(٢) ان الذى يهمنا ، أكثر من ذلك ، ليس من لخص

---

(١) ج ١ : ٢٠ .

[فى العلاقة بين الرسائل والرسالة الجامعة انظر أيضا : الرسائل ج ١ : ٢١ ، ٢٢ ، ٢٠٩ ، ٢٢٨ . ج ٣ : ٢٧٩ . ج ٤ : ٢٧٨ ، ٢٩٠ ، ٣٠١ ، ٣٧٢ ، ٤٠٦ . وانظر كذلك الرسالة الجامعة ص ٨ . ٩ ، ١١ ، ١٤١ ، ١٥٣ ، ١٦٩ ، ٤٢٦ ، ١٥٣ ، ٥٢٢] .

(٢) يرى الكثيرون ان الرسالة الجامعة للحكيم المجريطى « مسلمة بن أحمد بن قاسم بن عبد » (ارجع الى المقدمة القيمة لكتاب « الرسالة الجامعة » بقلم المؤرخ جميل صليبا . بينما بعض الاسماعيلية وبعض مؤيديها يقولون ان المجريطى لم يقم بتلخيص الرسالة ، انظر كتاب : أربع رسائل اسماعيلية . تحقيق الاستاذ عارف تامر (سورية ـ ١٩٥٢) .

الرسائل ، وانما هل هناك صلة بين الرسالة الجامعة وتلك الرسائل ؟ وهل كانت تمثل آراءهم أم لا ؟

*

لقد لاحظنا الرسالة الجامعة وقارناها برسائل اخوان الصفاء فوجدنا شبها كبيرا فى الجمل والاسلوب ، ونفس الكلام الموجود فى الرسائل يتردد معظمه ثانية فى الرسالة الجامعة .. فهى تمثل آراءهم . ولا ننكر ان هناك فقرات فى الرسالة الجامعة لم نقرأ مثلها فى الرسائل بمجموعها ، ولعل ذلك اقتضته الحاجة .

فلسفتهم :

بحث اخوان الصفاء ـ فى رسائلهم ـ فى كل علم[1] . وكان للافكار اليونانية تأثير واضح على رسائلهم . وقد قالوا : انه متى انتظمت الفلسفة اليونانية والشريعة الاسلامية فقد حصل الكمال . ذلك انهم يرون « ان ظاهر الشريعة انما يصلح للعامة ، فهو دواء

---

(١) قال عنها بندلى جوزى فى كتابه « من تأريخ الحركات الفكرية فى الاسلام » : انها « أول دائرة معارف للعلوم والمعارف ظهرت فى العالم .. » . وقال عنها طه حسين « مقدمته فى الجزء الاول من رسائل اخوان الصفا » : انها شبيهة بدائرة معارف فلسفية علمية . وقال عنها De Lacy انها تشكل دائرة معارف للفلسفة والعلم لمتكلمى العربية فى القرن الرابع الهجرى . (ص ١٦٥ من كتابه Arabic thought and its place in History).
ويسمى الدكتور عبدالعزيز الدورى الرسائل بالموسوعة (دراسات فى العصور المتأخرة ـ ص٦) ، ويسمى اخوان الصفا بالانسكلوبيديين (نفس الكتاب ص ١٣٤) .

للنفوس المريضة الضعيفة ، أما النفوس القوية فغذاؤها النظر الفلسفى العميق » . وهم فى رسائلهم يوفقون ، فى مجالات كثيرة ، بين الدين والفلسفة .

لا أظن أن اخوان الصفاء أرادوا بتأليف رسائلهم البحث فى الفلسفة والعلوم والتفلسف فيها ، ولكن لانها بمثابة الكتاب الذى يجب أن يقرأه ويطلع عليه « الاخ » حتى تتكون عنده الفكرة المطلوبة عن الجماعة ومعتقداتها . يكفى للدلالة على هذا سلاسة التعبير وسهولة الاسلوب فى المواضيع العامة ، وغموض الفكرة فيما يخص هدفهم ودعوتهم . وكذلك دعوتهم بألا توضع فى غير أهلها ، أو بذلها لمن لا يرغب فيها ، و « التحرز فى حفظها وأسرارها واعلانها واظهارها كل التحرز »(١) ، ولكن ألا تمنع عن مستحقها ومن يريدها من الاعوان والاصدقاء .

ان من يدرس هذه الرسائل ، لابد أن يلاحظ التأثير الفيثاغورى والافلاطونى . وأرجح ان تأثرهم بافلاطون راجع الى انه كان ضد النظام القائم فى عهده ، فان أفكاره « فى جمهوريته » كان يريد بها اقامة دولة مثالية ومجتمع سعيد غير المجتمع الذى كان يعيش فيه . كما ان الفيثاغوريين كانوا جماعة سرية تريد الوصول الى الحكم ، وكان مذهبهم أقرب الى مذهب اخوان الصفاء .

والتأثير لم يقتصر على فلسفة الفيثاغوريين وافلاطون . بل انهم

---

(١) ج ١ : ٢٠ ، ٢١ . ج ٤ : ٣٢ .

تأثروا بأرسطو ايضا ، وبأفلوطين ولا سيما فى القول بالفيض ، وكذلك بالاديان الهندية والزردشتية واليهودية والمسيحية[1] ، يظهر ذلك واضحا فى الامثال والقصص والاشارات التى يرد ذكرها فى الرسائل .

وبالرغم من أن اخوان الصفاء لم يكتبوا الرسائل الا للعامة من الناس ، ومن يريد الاطلاع على أهدافهم وأفكارهم ، الا أن الكثيرين من الفلاسفة قد طالعوها واقتبسوا منها ؛ ومن هؤلاء « الغزالى » ، فهو بالرغم من انه قد نقدها فقد تأثر بها كثيرا ، وهو نفسه يقر بذلك[2] . ويقول « دى‌بور » ان الغزالى مدين لفلسفة اخوان الصفاء بأكثر مما يعترف . ويضيف : « وقد استفاد آخرون من رسائلهم .. فى تأليف الموسوعات »[3] . ويرى بندلى جوزى : « ان الفلسفة مدينة لهم برسائل اخوان الصفاء .. وهى أول دائرة معارف فى العالم »[4] . ويرى آخرون ان الرسائل قد انتقلت الى

---

(١) يرى بندلى جوزى فى كتابه « من تاريخ الحركات الفكرية فى الاسلام ج ١ » : ان الكنائس أو الرهبنات المسيحية هى التى تأثرت باخوان الصفا وبالاسماعيلية .

(٢) انظر كتاب الغزالى « مشكات الانوار » وكتابه « المنقذ من الضلال » .

(٣) « تاريخ الفلسفة فى الاسلام » دى‌بور ـ ترجمة عبدالهادى أبو ريدة .

(٤) « من تاريخ الحركات الفكرية فى الاسلام » ـ بندلى جوزى .

بلاد الاندلس وأثرت فى علمائهـا ومفكريهـا ، ووصلت الى حكماء الافرنج (فأحلوها محلها الرفيع)[1] .

ولننظر الآن : هل لاخوان الصفا فلسفة خاصة بهم أم لا ؟ . الذى نلاحظه :

(١) انهم نظروا فى جميع العلوم ، يظهر ذلك واضحا فى رسائلهم [2] .

(٢) انهم لا يعادون علما من العلوم ، ولم يهجروا كتابا من الكتب ، ولم يتعصبوا لمذهب من المذاهب . قالوا : « ان مذهبنا يستغرق المذاهب كلها ، ويجمع العلوم جميعها » . وعدم تعصبهم ذاك أدى بهم الى التحدث عن كل المواضيع الفلسفية ، دون أن يتركوا شيئا .

(٣) ان الرسائل لم تكتب لنفر دون آخر من الاعضاء ، أو لفئة دون اخرى ، وانما كتبت ليطلع عليها جميع « الاخوان » والانصار والاصدقاء . وهى دائرة معارف ، أرادوا من تأليفها توسيع ادراكات « الاخوان » تبعا للخطة التى أرادوها ..

(٤) ان الرسائل لما كانت تبحث فى مختلف العلوم ، فهى تعتمد على الاقتباس من المذاهب الفلسفية والاديان وأراء الحكماء . واخوان الصفاء أنفسهم يقرون بهذا الاقتباس .

---

(١) انظر مثلا كتاب Arabic thought and its place in History لمؤلفه De Lacy O'leary المطبوع فى لندن (١٩٣٩) ـ ص ١٦٨ .

(٢) انظر ج ١ : ١ـ٢٣ .

وعلى هذا يمكن أن يطلق على فلسفتهم بأنها اقتباسية « تلفيقية » • Eclecticism

وحين نقول « تلفيقية » اقتباسية ، فاننا لا ننكر قط ان الرسائل تحوى بعض آراء وافكار خاصة باخوان الصفاء ، ولا سيما فى الاجتماع والاخلاق ، وبعض اضافات وآراء اقتضتها الحاجة •

صلتهم بالحركات الاخرى :

بقيت لدينا مسألة لاشك فى صعوبتها ، فان أحدا لم يستقر بعد على نتيجة لها • تلك هى صلة اخوان الصفاء ببقية الحركات الاخرى •

لقد تضاربت الاقوال • قال فريق من المؤرخين ان اخوان الصفاء لهم علاقة بالفاطميين •

وقال آخر انهم فرع من القرامطة ، ومن هؤلاء من قال انهم أصل القرامطة •

وقال فريق ثالث انهم يمثلون الاسماعيلية •

وقال فريق رابع انهم كانوا معتزلة •

وقالوا •• وقالوا ••

ونحن الآن ندرس علاقة اخوان الصفاء بالحركات الاخرى فى ضوء الدراسات الطويلة لهذه الجماعة •

(١) نبدأ ، قبل كل شىء ، برأى اخوان الصفاء ـ انفسهم ـ ، اذ يقولون : انهم لا يعادون علما من العلوم ولا مذهبا من المذاهب ،

« لان مذهبهم يستغرق المذاهب كلها » • تجد هذا الرأى فى موضعين من الرسائل (ج ٤ : ص ١٠٥ و ٢١٦) •

(٢) رأى أبى حيان التوحيدى عن زيد بن رفاعة (أحد أعضاء اخوان الصفاء البارزين) بأنه : « لاينسب الى مذهب •• » • (راجع كتاب المقابسات للتوحيدى ، وكتاب تأريخ الحكماء للقفطى)•

ان رأى اخوان الصفاء بأنهم لا يعادون مذهبا من المذاهب قد لا يعنى المذاهب الدينيـــة أو المتعلقـة بالدين ، وقـد يعنى المذاهب الاجتماعية والفلسفية والعلمية والادبية •• ثم اننا لا نستطيع أن نبدى رأيا ــ لاول وهلة ــ فى هذين الرأيين من دون الرجوع الى بقيـة الآراء ، ومعرفة مدى علاقة اخوان الصفاء بالفرق الاخرى فى ضوء الرسائل والمصادر الاخرى •

(٣) رأى القائلين بأن اخوان الصفاء لهم علاقة بالفاطميين • نعم ، ان اخوان الصفاء كانوا قد اتصلوا بالفاطميين ، ولكنهم لم يتفاهموا معهم ، ولذلك لم يكونوا يميلون اليهم •

(٤) رأى القائلين بأن اخوان الصفاء كانوا معتزلة •

ان هـذا الرأى بعيد عن الواقع ؛ للاختلاف الزمنى بينهما ، ولانه لا توجد أدلة تشير بوضوح الى نوع من العلاقة بينهما • ولعل القائلين بذلك قد لاحظوا الشـبه الموجود بـين بعض أفكار المعتزلة وأفكار اخوان الصفاء ، فظنوا انهما جماعة واحدة • واذا كان هناك تشابه فى الافكار فهو ، ولاشك ، نتيجة اقتباس اخوان الصفاء لبعض

أفكار المعتزلة .. (كاقتباسهم من جميع الفلاسفة والمذاهب) ، أو اعتمادهما على مصدر قديم واحد .

(٥) رأى القائلين بأن اخوان الصفاء هم من القرامطة .

ولعل الذى يدعوهم الى هذا القول استنادهم الى تأريخ حركة القرامطة . واذا رجعنا الى هذا التأريخ نلاحظ :

أ ـ ان اعتماد المتوكل على الاتراك ، وبذره بذور التفرقة « الطائفية » ، ومحاربته للشيعة ، كان سببا من أسباب التذمر وظهور قرمط (حوالى ٢٥٦ـ٢٧٩) ، اذ طالب بامام من أهل بيت الرسول .

ب ـ أيد الكثيرون قرمط ، فى البصرة والمناطق المجاورة .

ج ـ بقى القرامطة مدة من الزمن فى البصرة ، وبقيت آثار دعوتهم الى زمن بعيد ..

د ـ وليس من المستبعد أن يكون اخوان الصفاء قد تأثروا ـ بادىء الامر ـ بآراء القرامطة ، لاسيما وان نشأتهم كانت فى البصرة أيضا .

هـ ـ والذى نراه أيضا وجود تشابه واضح بين غاية وأهداف القرامطة واخوان الصفاء ، فان كلا منهما جماعة سرية ، وكلاهما يقولان بفكرة الامام .

على ان الذى يجب أن نذكره هو أن اخوان الصفاء جماعة كانت تنشر آراءها وأهدافها بطريق سلمى تعليمى ، بعكس القرامطة تماما ... اذ لجأوا الى السيف والقوة .

(٦) رأى القائلين بأن اخوان الصفاء من الاسماعيلية .

بعض هؤلاء يستند الى أدلة قليلة ، وغيرهم لا يستندون الى شيء وانما اطلقوا هذا الرأى دون حجج !

أما نحن ، فنجد شبها كبيرا بين اخوان الصفاء والاسماعيلية ، مثلا :

أ ـ ان اخوان الصفاء والاسماعيلية جماعتان سريتان .

ب ـ تعاليم وآراء ودعوة وأهداف اخوان الصفاء تتشابة مع تعاليم وآراء ودعوة وأهداف الاسماعيلية .

ج ـ اتخذ اخوان الصفاء كما اتخذت الاسماعيلية ، الفلسفة طريقا لبث دعوتهم .

د ـ اسلوب الدعوة كان متشابها ، عند كليهما ؛ اسلوب التدرج فى التأثير وفى قبول (الاعضاء) ، والتقرب ، والتواضع للناس ..

هـ ـ ان كلا منهما ، كما يظهر لنا من المصادر التأريخيـــة الكثيرة ، كان يقول بالتشيع (لآل البيت) .

و ـ وان كلا منهما ، أيضا ، قال بالامام الكامل المنتظر .

ز ـ اسلوب كتابة الرسائل عند كليهما يكاد يتشابه ، ولا سيما فى بداية رسائلهم ، اذ يقول اخوان الصفاء : « اعلم أيها الاخ البار الرحيم ، أيدك الله وايانا بروح منه .. » وتقول الاسماعلية ـ فى رسائلها ـ : « اعلم أيها الاخ البار الرحيم الرشيد ، منحك الله أنوار التأييد ... » .

ح ـ قال اخوان الصفاء والاسماعيلية معا بأن الله أبدع العقل

الكلى ، وان العقل أبدع النفس الكلية (١) .

ط ـ ينكر اخوان الصفاء والاسماعيلية (صفات الله) وينزهونه عن صفات البشر .

ى ـ أولوا ـ معا ـ كلام الله (القرآن) .

ك ـ هناك أفكار فلسفية اخرى يقول بها اخوان الصفاء والاسماعيلية تكاد تتشابه ، بل هى متشابهة (فى بعضها) .

ل ـ ان كلا من الفريقين كان يدعى بالبعد عن التعصب الدينى .

م ـ بحثا فى الزهد وأهميته ، وفى التصوف ..

ن ـ مزجا الدين بالفلسفة .

س ـ أهتما بالعدد ، ولا سيما العدد (١٢) والعدد (٧) .

ع ـ قال اخوان الصفاء والاسماعيلية بالسحر ، وبينوا حالاته ، وأكدوا عليه فى مجالات كثيرة .

ف ـ ان الاسماعيلية ـ نفسها ـ تعلن ان رسائل اخوان الصفاء من كتاباتهم (٢) .

هذا التشابه كله ، وغيره يدعونا الى القول بأن هناك ثمة علاقة بين الاسماعيلية واخوان الصفاء .

(٧) رأى القائلين ، الذين استندوا الى بعض ألفاظ وعبارات

---

(١) انظر مثلا : دائرة المعارف الاسلامية ـ الترجمة العربية ـ ص ١٩٣ .

(٢) انظر آخر كتاب (اربع رسائل اسماعيلية) لاحد مؤيدى الاسماعيلية : الاستاذ عارف تامر ـ سورية ـ ١٩٥٢ .

فى الرسائل ، بأن اخوان الصفاء قالوا بالتشيع .

نأتى أولا على من ينكر هذا الرأى ويقول ان اخوان الصفاء قالوا بعبارات تختلف عن فكرة الامامة ، ويذكر مثلا لذلك ص ٨٦ من الجزء الثالث و ص ٥٨ من الجزء الرابع وهو : « ان الامام الفاضل المنتظر الهادى مختف لا يظهر من خوف المخالفين » . ولو نظرنا السطور القليلة قبل هذا الكلام لوجدنا ان اخوان الصفاء لم يقولوا بذلك فقط ، بل قالوا : « ان من الآراء الفاسدة والاعتقادات المؤلمة لنفوس معتقديها رأى من يرى ويعتقد .. ان الامام الفاضل المنتظر مختف لا يظهر من خوف المخالفين » . ثم لا يعقل ان يذكر اخوان الصفاء ألفاظ (الامام) و (الفاضل) و (المنتظر) ، ثم يقولون بعد ذلك انه لا يظهر .. من خوف المخالفين . ولاخوان الصفاء نص آخر يعززون فيه رأيهم (ص ١٩٩ ، الجزء الرابع) ، قالوا : « .. ومنهم من يقول ان الامام المنتظر مختفى من خوف المخالفين ، كلا بل هو ظاهر بين ظهرانيهم يعرفهم وهم له منكرون » .

ونص آخر يعتمد عليه من ينكر أية علاقة لاخوان الصفاء بالشيعة ، وهو فى ص ١٨٩ ـ الجزء الرابع : بأن العقل والقدرة ـ لواضع الناموس ـ « يقومان مقام الرئيس الامام » . ان هذا النص لا يمكن الاعتماد عليه فى مثل هذه الحالة اعتمادا كليا ، ولا سيما اذا تفهمنا الكلمات التى تسبق هذا القول .. وماذا يقصد منها اخوان الصفاء تماما .

اننا وجدنا نصوصا كثيرة فى تأييد الشيعة • كقول اخوان الصفاء فى ص ١٥٧ ، الجزء الرابع عن الرسول : « •• أنا وأنت يا على أبوا هذه الامة •• » • وكقولهم فى تفضيل آل البيت ص٢٣٤، الجزء الرابع : « •• لانهم خزان علم الله ووارثو علم النبوات •• »• وكقولهم فى ص ٤٠٣ ، الجزء الرابع : « •• وهذه الولاية المخصوصة ، لاهل بيت الرسالة عليهم السلام ••• ولذلك استحقوا الرياسة ووسموا بالخلافة•• وهم أطباء النفوس ومداوو الارواح »• ولهم قول آخر ص ٢٤٢ ، الجزء الرابع : « ومما يجمعنا واياك أيها الاخ البار الرحيم محبة نبينا عليه السلام وأهل بيت نبيه الطاهرين وولاية أمير المؤمنين على بن أبى طالب خير الوصيين صلوات الله عليهم أجمعين » • وهناك اشارات كثيرة ، كمدح الائمة المهديين (ص٢٥١، الجزء الاول) ، ورأى الحسين بن على بن أبى طالب فى علماء السوء (ص ٧١ ، الجزء الرابع) •

وبالاضافة الى كل ذلك ، فهناك اشارة واضحة على أنهم شيعة وانهم يميلون الى العلويين • ففى ص ١٩٩ ـ الجزء الرابع ، يتبرأون من بعض العلويين والمتشيعين الذين خرجوا عن (التعاليم) ، وجعلوا التشيع مكسبا وستارا لهم • وتزيد الاشارة وضوحا تلك السطور (فى نفس الصفحة) التى يعترف فيها اخوان الصفاء بالامام المنتظر وبأنه ليس مختفيا ••

ثم لاحظنا خلال دراستنا ، ان هناك تشابها كبيرا فى اسلوب

الدعوة الذى يتبعه اخوان الصفاء والشيعة ، على وجه العموم ، وفى النصيحة ، وقبول المؤيدين .. بالاضافة الى أفكارهم عن بيت آل الرسول وعن على وأتباعه وتمجيدهم لهم ، وقولهم بالامام المنتظر..

ويرى الدكتور حسين الحمدانى (وهو من شيعة الاسماعيلية، وممن درس الادب الاسماعيلى والرسائل مدة طويلة) : ان الرسائل كلها تدعوا الى الامام ، وان لها مسحة شيعية علوية واضحة ، ولها مكانة فى أدب الاسماعيليين[1] .

* * *

من كل هذا نستطيع أن نقول :

(١) ان هناك نوعا من التشابه بين اخوان الصفاء والقرامطة .

(٢) وان هناك تشابها ، أيضا ، بين اخوان الصفاء والاسماعيلية .

(٣) ونحن لا ننكر التشابه الموجود بين هذه الفرق الثلاث (اخوان الصفاء ، القرامطة ، الاسماعيلية) ، ولا سيما فى الغايات والاهداف ؛ ولا ننكر أيضا أن هذه الفرق كلها كانت مظهرا للدعوة الباطنية (ولا سيما فى بداية الدعوة وقبل نجاح القرامطة وقبل أن يستنكر الاسماعيليون تصرفات القرامطة ولجوءهم الى سياسة السيف والدم باستمرار) .

---

(١) بحث تاريخى فى رسائل اخوان الصفاء : حسين الهمدانى ـ ص ١٥ .

(٤) غير ان الذى رأيناه هو أن التقارب والتشابه اكثر مما يكون بين اخوان الصفاء والاسماعيلية •

(٥) ونحن نعزى ذلك الى أن القرامطة لجأت الى القوة والسيف واتبعت سياسة الدم والبطش ، وتركت أو كادت ان تترك التعاليم التى أعلنتها وبثتها فى بداية الدعوة • فى حين حافظت الاسماعيلية على تلك التعاليم ، ودونت الرسائل الكثيرة • وكذلك اخوان الصفاء الذين دونوا رسائلهم ونسخوها ووزعوها ، واتبعوا طريقا سلميا فى بث الدعوة بواسطة تعليم الناس •

(٦) ولذا وجدنا ، بين أيدينا ، مصادر وأدلة ورسائل عن الاسماعيلية أكثر مما وجدنا عن القرامطة •

(٧) وان هذه المصادر والادلة والرسائل التى توفرت لدينا كانت تشير كلها الى ان العلاقة كانت وثيقة بين اخوان الصفاء والاسماعيلية ، باعتبارهما فرقتين باطنيتين تعملان لهدف واحد ، وتبث التعاليم بواسطة الرسائل •

وهذا كله دعانا الى القول بالتشابه الكبير بينهما ، (فى ضوء الأدلة التى ذكرناها عندما قارنا بين اخوان الصفاء والاسماعيلية) •

(٨) واذا كان هناك من ينكر هذه الصلة بينهما ، فانه لا يستطيع أن ينكر قط انهما كانا يسيران نحو هدف واحد ، ويعملان لغاية واحدة •

* * *

اننا الآن أمام جماعة سرية لم يستطع التأريخ ، حتى الآن ، أن يكتشفها بالرغم من مرور ألف عام ـ تقريبا ـ على ظهورها • وان (رسائل اخوان الصفاء) تكاد تكون المصدر الوحيد عندنا الذى يهدينا الى مبادئهم وأهدافهم وغاياتهم • فلا حرج ، اذن ، اذا تنوعت الآراء عنهم ، وعن اتصالهم بالحركات الاجتماعية الاخرى •• ففى مثل هذه المواضيع تتضارب الآراء وتتصادم ، ويكثر الانزلاق فى الخطأ ••

الكتاب الاول

الفلسفة الاجتماعية

فى هذا الكتاب بحث لافكار اخوان الصفاء فى المجتمع ، والسياسة ، والمدينة الفاضلة ، والمرأة العربية ، والتربية ، والتعليم . وفى « المدينة الفاضلة » عرضت أفكارهم وشرحتها وعقبت عليها ، اذ لم أر كتابا بحث فى تلك « المدينة » باسهاب ووضوح . كذلك أسهبت فى موضوعى التربية والتعليم ، وبينت آراء اخوان الصفاء الجديدة فى هذا المجال وقارنتها مع آراء المفكرين المحدثين . كما ناقشت بعض أفكار اخوان الصفاء ، وأبديت رأيى فى مواضع متفرقة .

لقد قال طه حسين : « ان ابن خلدون أول من اتخذ المجتمع موضوعا لعلم مستقل » . وكان عليه ألا ينسى كتابات وآراء فلاسفة الاسلام ، وفى مقدمتهم اخوان الصفاء ، فقد بحث اخوان الصفاء فى المجتمع وطبقاته ، وعلاقة الفرد بالفرد الواحد وبالمجتمع وبالدولة ، وبحثوا فى السياسة والرئاسة والدولة ، وغير ذلك . ان اخوان الصفاء تقدموا ابن خلدون وغيره فى بحثهم فى « الاجتماع » . ولذا يجب ألا ننكر فضلهم ، وألا ننساهم أو نتناسهم .

وكان بودى أن أشير فى هذا الكتاب الى آراء اخوان الصفاء فى فلسفة النشوء والارتقاء . فقد وجدت ان لهم أقوالا وأفكارا تتشابه

مع أفكار دارون ، بل هناك أفكار قالوا بها قبل « دارون » ، وهى تستحق الدراسة والبحث . غير انني فضلت بحث هـذا الموضـوع باسهاب ، ومقارنته بآراء دارون وجميع القائلين بفلسـفة النشـوء والمتأثرين بهـا ، فى موضوع مستقل واسع بعنوان « فلسفة اخوان الصفاء الطبيعية » وذلك فى كتابى القادم « تأريخ وفلسفة اخوان الصفاء » .

الفصل الأول

المجتمع

أثر البيئة فى المجتمع :

للبيئة ، ويقصد بها هنا المؤثرات الطبيعية والعوامل الجغرافية ، أثر فى المجتمع • هذا أمر لا شك فيه • ولم يغفل اخوان الصفاء هذه الملاحظة فذكروها فى رسائلهم •

فللمناخ والتأثيرات الجوية والاجرام السماوية ، ولا سيما الشمس ، وطبيعة الارض تأثير كبير فى مختلف البلدان وسكان تلك البلدان ، يتضح ذلك جليا فى اختلاف لغات الناس وألوانهم وأخلاقهم وأشكالهم (١) •

ان المناخ والتأثيرات الجوية والاجرام السماوية وطبيعة الارض ليست متشابهة فى جميع البلدان ، وانما تختلف من بلد الى آخر ، وهذا الاختلاف هو الذى يسبب تباين الناس فى لغاتهم وألوانهم وأخلاقهم • قال اخوان الصفاء ـ كما قال الاقدمون ـ ان للارض

---

(١) الرسائل ج ٣ : ٣٥٢ •

سبعة أقاليم ، وان فى كل اقليم كثيرا من المدن ، وان فى كل مدينة أمما تختلف ألسنتهم وطباعهم ومذاهبهم وأعمالهم (١) . ولنأخذ مثلا الاقليم الرابع ـ اقليم حوض البحر المتوسط ـ يرى اخوان الصفاء انه اقليم الانبياء والحكماء والرجال الصالحين ، والناس الذين يسكنون فيه أعدل من غيرهم طباعا وأخلاقا ، وأما ألوانهم فتتراوح بين البياض والسمرة ... (٢) .

ليس اخوان الصفاء أول من قالوا بأهمية المؤثرات الطبيعية والعوامل الجغرافية ؛ فان هذا الرأى كان متداولا بين القدماء ، قال به أرسطو ، وقال به من مفكرى وفلاسفة الاسلام الجاحظ والكندى . وأخذ به ابن خلدون ، الذى ذهب بعيدا حين جعل التأثير الجغرافى مصدرا للخلاف بين أهل البدو وأهل الحضر (٣) ، والذى قال ان الطبقات الاجتماعية وجدت متباينة نتيجة لتأثيرات الاحوال الطبيعية . أما فى العصور الحديثة فقد انصرف كثيرون الى بحث هذه الناحية فى كتب الجغرافية الاجتماعية والجغرافية البشرية . وكان لفردريك لبلاى F. Le Play وديمولان E. Demolin آراء مهمة فى هذا

---

(١) ان أردت وصفا لتلك الاقاليم فراجع الرسائل ج ١ : ١١٥ـ١٣٠

(٢) ج ١ : ١٢٥ . ولزيادة الايضاح راجع بحثنا ـ فى هذا الكتاب ـ عن أهمية البيئة والعوامل الجغرافية وتأثيرها فى الاخلاق .

(٣) انظر كلام ابن خلدون فى الاقاليم السبعة فى مقدمته (ص ٥٢ـ٨١) ، طبعة دار الكشاف .

الموضوع • كما كتب راتزل بحثه « الجغرافية البشرية » Human Geography • وعندما كتب بوكل H. T. Buckle عن الحضارة ، لا سيما فى كتابه « الحضارة والمناخ » Civilization and Climate لم ينس أهمية العوامل الطبيعية • وهناك ايضا دكستر E. G. Dexter وهنتنكتن E. Huntington وسمبل Ellen C. Semple •

ويهمنا أن نذكر ان دوركهايم E. Durkheim عند بحثه فى الانتحار أكد وجود رابطة قوية بين الظواهر الاجتماعية والمناخ (راجع كتابه « الانتحار » Le Suicide ، المطبوع فى باريس عام ١٨٩٧ • الكتاب الاول ـ الفصل الثالث) •

ويؤكد دكستر وهنتنكتن أهمية المناخ وتأثيره على المجتمعات • (طالع مثلا : الفصل الثالث من كتاب سوروكن : P. Sorokin Contemporary Sociological Theories المطبوع فى نيويورك عام ١٩٢٨) •

ولا ننس أخيرا رأى مونتسكيو فى هذا الموضوع ، ولا سيما فى كتابه « روح القوانين » L'espirit de loi •

* * *

أصناف الناس « المجتمع » :

لاخوان الصفاء رأى طريف لابد من ذكره • وهو ان شخصية الانسان ومستقبله معروف منذ ولادته ، اذ ان كل مولود يأتى بحسب مرتبة والديه ووظيفتهما • وهكذا نستطيع مقدما أن نعرف من هم

أولاد الملوك والرؤساء ، ومن هم أولاد التجار ، ومن هم أبناء الفقراء ! (١) .

وعلى هذا الرأى فان أبناء الفقراء والمكدين والمساكين هم فقراء ومكدون ومساكين ولا يمكن أن يكونوا غير ذلك ، وان أبناء التجار لابد أن يكونوا تجارا وأصحاب رؤوس أموال ، وان أبناء الرؤساء هم رؤساء بالفطرة والمولد ولا يمكن أن يكونوا غير ذلك !. وبالطبع ، فان المنطق الصحيح لا يقر هذا الاسلوب من الاحكام ، لانه اسلوب ضعيف ، وطريقة اتكالية لها آثار سيئة (تبرز تلك الآثار بوضوح فى الزمن البعيد) ؛ والواقع الذى نحن فيه يخالف هذا الرأى . فكم من أبناء الفقراء والكادحين استطاعوا الوصول الى الوزارة والحكم ، وكم من ملوك ورؤساء أقصوا عن الحكم وأصبحوا كبقية الناس . على اننا حين نذكر رأى اخوان الصفاء يجب ألا ننسى غايتهم وهدفهم البعيد منه .

والناس أصناف وطبقات . وقبل أن نذكر تلك الاصناف نريد أن ننبه الى سهو وقع فيه اخوان الصفاء وتناقض فى عدد الطبقات كما

---

(٢) قال افلاطون بما يشبه هذا المعنى فى (محاورة أوطيفرون) . ويرى كيرنس Cairnes أن لا تنافس بين الطبقات . وهو يريد (ان المولود أو الموجود فى درجة أو طبقة يبقى هناك غالبا ولا يتنافس مع الذين فى الطبقات الاخرى) . مذكرات فى الاقتصاد الاجتماعى ـ الدكتور محمدعزيز ـ مطبعة المعارف ـ بغداد ١٩٥٠ .

هو مدون فى رسائلهم • فمرة يقولون ان عدد طبقات الناس تسع[1] ، وتارة يقولون انها سبع[2] ، ولكنا حين نقرأ تلك الطبقات فى كلا المصدرين نجدها ثمانى طبقات • والملاحظ عند المقارنة بين هذين المصدرين المتناقضين هو ان اخوان الصفاء قالوا بطبقة (فى المصدر الثانى) ـ هى هنا الطبقة التاسعة ـ لم يقولوا بها فى المصدر الاول[3] • وعلى هذا صارت الطبقات كالآتى :

(١) أهل الدين والشرائع والنبوات وأصحاب النواميس « ومن دونهم من الموسومين بحفظ أحكامها ومراعاة سننها والمعروفين بالتعبد فيها » •

(٢) أهل العلم والحكماء والادباء وأصحاب الرياضيات والموسومين بالتعليم والتأديب والمعارف •

(٣) الملوك (والسلاطين) والامراء والرؤساء وأرباب السياسة ، والمتعلقين بخدمتهم من جنود وأعوان وكتاب وعمال وخزان ووكلاء ومن شاكلهم ••

(٤) البناء والمزارعون والفلاحون ورعاة الحيوان ••

(٥) الصناع وأصحاب الحرف والمصلحون للحاجات ••

(٦) التجار والباعة ، ومستوردو البضاعة من الخارج •

---

(١) ج ٣ : ٣٩٦ •

(٢) ج ١ : ٢٤٨ •

(٣) أشار الى ذلك الدكتور عمر فروخ فى كتابه (اخوان الصفا) •

(٧) المتعيشون (الذين يعيشون فى خدمة غيرهم) •

(٨) الضعفاء والسوال والكادحون ومن شاكلهم من الفقراء والمساكين[١] •

(٩) أرباب البنايات والعمارات والاملاك[٢] •

ويحدد اخوان الصفاء أخلاق هؤلاء وسلوكهم •

هذه هى أصناف الناس ، وكل صنف يمكن أن ينقسم الى أصناف كثيرة ، ولكنهم حصروها بعدة أصناف لتكون واضحة ومفهومة للجميع • والملاحظ فى هذا التقسيم انه تم بحسب أعمالهم • والذى نلاحظه ، انهم يفضلون طبقات على اخرى ، فأهل العلم يقدمون على الملوك والسلاطين والامراء ، وكذلك العمال والصناع فهم يفضلون على التجار وأصحاب الاملاك • وربما لم يقصد اخوان الصفاء ذلك عندما دونوا هذه الطبقات • ولكننا فى نفس الوقت لا يمكن أن نجزم بشىء ، فاخوان الصفاء فرقة لها أهداف بعيدة وربما ـ ايضا ـ أرادت بذلك أن تتقرب الى الطبقات الفقيرة الكادحة حتى يزداد نفوذها بينهم •

ان تلك الطبقات تمثل المجتمع القائم آنذاك • وهم لم يدخلوا طبقات جديدة ، ولا قالوا بطبقات بعيدة عن واقعهم ، بل كان تقسيمهم صورة حقيقية للمجتمع الذى كانوا يعيشون فيه •

★ ★ ★

---

(١) انظر ج ٤ : ١٣٠

(٢) نجد فى رسائلهم أيضا تقسيما ضيقا للناس : الى صناع وتجار وأغنياء • ج ١ : ٢١٧ •

التعـاون :

هذا العدد الكبير من الاصناف ، وهذا الاختلاف البين بينها ، لابد له من سبب • يرى اخوان الصفاء : ان فضائل العقول ومناقب العقلاء لا يحصى عددها بل لا يمكن أن تجتمع فى انسان واحد ، كما ان الاعمال كثيرة ولا يمكن أن يقوم بها شخص واحد ولا يستطيع أن يبلغها كلها ، لان عمره قصير والاعمال كثيرة ، ولذلك انصرف كل الى عمله الخاص الذى يرغب فيه • وبذلك يستطيع كل منهم أن يقوم بواجبه ويساعد الآخرين • فالانسان ، اذن ، محتاج الى صاحبه الانسان ، وهو لا يستطيع أن يعيش وحـده ، ولا يمكن أن تكون حياته سعيدة بدون تعاون مشترك بينه وبين الناس(١) •

---

(١) التعاون الذى يريده اخوان الصفاء هو تعاون المجتمـع لاجل سعادته • وهناك مفكرون كثيرون يقولون بذلك ، منهم الفارابى (انظر كتابه : آراء أهل المدينة الفاضلة ، الطبعة الثانية ، مصر ، ص ٧٧ـ٧٨) • وابن سينا • ومنهم هربرت سبنسر اذ يقول بتقسيم العمل بين الافراد ، والاعتماد على التعاون الاجتماعى كأساس لنمو الحياة الانسانية • ومنهم أيضا مكايفر R. M. Mac Iver الذى يجعل التعـاون عـلى نوعين : مباشـر « وهو مساهمة الناس فى أعمال وواجبات متشابهة » وغير مباشرة وهو « قيام الناس بأعمال وواجبات متباينة » • وفى كلا النوعين من التعاون يعمل الناس لاجـل غاية واحدة • ولكن هذه الغاية لن تتم بدون مبدأ تقسيم العمل الذى له أهمية اقتصادية واجتماعية •• انظر كتابه (Society) • ورأى مكايفر لا يختلف عن رأى هربرت سبنسر فى تقسـيم العمـل =

ويذكر اخوان الصفاء قصة الحمامة المطوقة (وهى من قصص كليلة ودمنة) وكيف استطاعت النجاة من الشبكة لتفسير أهمية التعاون (١) .

ان فكرة التعاون هذه التى يهدف اليها اخوان الصفاء هى فكرة حسنة رائعة ، وهى نتيجة لتقسيمهم الواسع للطبقات . وهم يؤكدون فى مواضع كثيرة من رسائلهم أهمية التعاون بين الناس ، ولا سيما بين اولئك الذين لهم أهداف وغايات واحدة . وأرى ان لذلك علاقة بمذهبهم . وسنجد ذلك واضحا فى الفصول القادمة .

= الاجتماعى . ورأى آدم سمث فى تقسيم العمل الاقتصادى . (انظر كتاب آدم سمث : A. Smith : Wealth of Nations)

وهناك مفكرون لا يرون هذا الرأى ومنهم هوبز الذى لا يعتقد بغريزة اجتماعية « تحمل الانسان على الاجتماع والتعاون » ، وحجته ان الانسان ذئب للانسان ، وان الكل فى حرب ضد الكل .

(١) ج١ : ٦٢-٦٣ . ج٣ : ٣٥١ . انظر فصل (مدينة اخوان الصفاء الفاضلة) .

الفصل الثانى

السياســـة

أنواعهـــا :

لا ينكر اخوان الصفاء ان « كتب السياسة الفلسفية » بحثت هذا الموضوع (١) . غير أن لكل فيلسوف طريقة خاصة فى تقسيم السياسات . وطريقة اخوان الصفاء انهم يقسمون السياسات بوجه عام الى خمسة أنواع :

(١) السياسة النبوية : تختص بمعرفة وبوضع الشرائع المرضية « ومداواة النفوس المريضة من الديانات الفاسدة والآراء السخيفة » ، وذلك بافهام الناس بعيوبها . وتتبع اسلوب القمع والتهديد تجاه النفوس الشريرة . هذه السياسة خاصة بالانبياء والرسل .

(٢) السياسة الملوكية : هى اتباع الطريق القويم الصالح مع الامة باتباع الشريعة « والامر بالمعروف والنهى عن المنكر » ، والاهتمام

---

(١) ج١ : ٢٦١ .

بالاخيار من الناس ، ومعاقبة الاشرار ، ورد الظلم من أى مصدر كان • هذه السياسة يختص بها خلفاء الانبياء ، والائمة المهديون (١)

(٣) السياسة العامية (العامة) : تختص بمعرفة جميع طبقات الناس وأحوال معيشتهم وأعمالهم وسلوكهم العام ، ومعرفة مطاليبهم، وتوجيههم الوجهة الصالحة • كرئاسة الامراء على البلدان ، وقواد الجيوش على الجنود •

(٤) السياسة الخاصية (الخاصة) : وهى سياسة خاصة بتدبير المسكن والمعيشة والخدم و (والغلمان !) والاطفال والاقرباء والجيران •

(٥) السياسة الذاتية : تختص بمعرفة الانسان نفسه ، وتتعلق بأخلاقه وأقواله وسلوكه فى حالة الرضا أو الغضب(٢) •

ولقد أصاب اخوان الصفاء ، فان الانسان الذى لا يعرف نفسه ولا يستطيع التصرف بها فى شتى الاحوال والظروف ، لن يستطيع ان يعرف الآخرين • ولن يكون الانسان مقياسا للآخرين حتى يكون مقياسا لنفسه • وقد قال بشر بن المعتمر (من المعتزلة) ان الانسان لا يأتى بالمعارف العقلية الا بعد أن يعرف نفسه •

---

(١) انظر موضوع « الرئيس » لتجد العلاقة بين هذا الكلام وبين فكرتهم عن « الرئيس » •

(٢) ج١ : ٢٠٧–٢٠٩ ، ٢٢٣ • ج٤ : ٣١ • شرح الفارابى وابن سينا السياسة الخاصة والذاتية شرحا مسهبا • وقال افلاطون وارسطو بأهميتهما •

السياسة النفسانية (١) :

يفرد اخوان الصفاء لهذه السياسة فصلا خاصا • وهى يمكن أن تكون من قبيل السياسة الخاصة • فهى تبحث فى العلاقة بين الانسان وخالقه ، وسياسة الرجل تجاه زوجته واخوته وأولاده و (غلمانه !) وأصدقائه • وهم يقسمون السياسة النفسانية (النفسية) الى :

(١) علاقة الانسان بالله : هذه العلاقة هى نوع من العبادة • وهى على نوعين :

أ ـ عبادة شرعية (ناموسية) : أى اتباع الاحكام الشرعية والانقياد الى أوامر الله ونواهيه ، والاهتمام بالصلاة والصوم والزكاة والحج والجهاد •

ب ـ عبادة فلسفية الهية : أى الاقرار بتوحيد الله ، والوصول الى ادراك حقائق الموجودات بأسرها(٢) •

(٢) سياسة الانسان زوجه : ينظر اخوان الصفاء الى النساء نظرة فيها احتقار وازدراء(٣) • وهم تعيسون فى حكمهم حتى على

---

(١) قالوا أيضا بالسياسة الجسمانية (الجسمية) ، ويقصدون بها حفظ الجسم ومنع الاذى عنه • وتحد الانسان هنا الشهوات ، ولا سيما الدنيوية منها • ج٤ : ٢٩٤ (راجع تفصيل ذلك فى بحث الاخلاق) •

(٢) ج١ : ٢٦٣ • ج٤ : ٣٠١ـ٣٠٢ • انهم هنا عقليون ، ويتفقون فى رأيهم هذا مع المعتزلة •

(٣) راجع فصل (المرأة) •

الزوجات . قالوا : « ان الاحب الينا والآثر عندنا الانفراد والوحدة[1] ، ولكن لا يكاد يتهيأ ذلك لجميع اخواننا « ولا نأمر به أيضا لئلا ينقطع الحرث والنسل » ![2] . فاذا فعلت ذلك (أى اذا تزوجت) فهم يطلبون منك أن تتفقد أحوالها فى كل وقت وأن تحذرها .. لانها سريعة التلون وكثير التغير .. « يتغيرن مع الساعات ، ويضطربن على الاوقات .. وان استفسادهن سهل يسير الا من عصمها الله تعالى منهن ، وقليل ما هم » ![3] .

(٣) سياسة الانسان اخوته وأولاده : على الانسان أن يتبع معهم سياسة واحدة لا تختلف ، لانها اذا تغيرت فقد تتغير نظرتهم اليه أيضا .

(٤) سياسة الانسان عبيده وحواشيه و (غلمانه !) : يجب أن تكون هذه السياسة واحدة ولا تختلف عن سياسته تجاه أولاده واخوته ، ووجوب احترامهم ليكون الاحترام متبادلا ، وألا يظهر لهم فاقة .. ومتى ظهر لهم منه اختلال نقصت منزلته وقصر موضعه ولم يقم له وزن أو هيبة[4] . وعلى العبيد والخدم والاتباع ألا يأخذهم كبر النفس لانه لا يليق بهم[5] .

---

(١) أى بدون زواج !.
(٢) ج٤ : ٢٩٨ـ٢٩٩ .
(٣) الاصوب : ما هن . ج٤ : ٢٩٩ .
(٤) ج٤ : ٢٩٩ .
(٥) ج١ : ٢٧٧ . ج٤ : ١٣٠ .

(٥) سياسة الانسان أصحابه : يقر اخوان الصفاء بأن سياسة الاصحاب والاصدقاء ليست سهلة يسيرة ، بل لا تكون الا بعد معرفة أحوالهم الصغيرة منها والكبيرة • فاذا عرف الانسان تلك الاحوال استطاع أن يتخذ الموقف أو السياسة التى تليق بهم • وهم ينصحون المرء أن يظهر لاصحابه « القرب بالبعد ، واللين بالغلظة ، والانس بالوحشة ، والكرم بالشح ، والانبساط بالانقباض ، والرحمة بالسخط ••• » • أى ان المرء اذا أراد أن يتخذ صديقا فعليه أن يجربه تجربة قاسية مرة ؛ لان الناس ليسوا متشابهين فى السلوك ، فمنهم الخير والشرير ، والحليم والسفيه ، والسخى والبخيل ، والشجاع والجبان ، والودود والحسود ، والعفيف والفاجر ، والصبور والجزوع ، والقنوع والشره ، والسلس والشرس ، واللطيف الرقيق والفظ الغليظ ، والعاقل والاحمق ، والعالم والجاهل ، والمحب والمبغض ، والمخلص والمنافق ، والناصح والغاش ، والمتواضع والمتكبر •• وما شاكل هذه الاخلاق المتضادة • ان من الناس من لا يصلح للصداقة والاخوة ، ولا سيما الذى يتشكل بشكل الصديق ويدلس على صاحبه ، ويظهر له المحبة فى حين يضمر فى صدره غير ما يظهره لصاحبه ![1] • وهم ينصحون بالابتعاد عن

---

(١) ج ٤ : ١٠٧ـ١٠٩ • يعرف افلاطون الصديق بأنه « من دل ظاهر أمانته على حقيقة باطنة • أما من أظهر الامانة وأضمر نقيضها فليس بصديق » • (الجمهورية ، ترجمة حنا خباز ، الطبعة الثانية ، ص ١٠) •

الرجل المعجب الصلف ، أو النكد اللجوج ، أو المماحك المماري ، أو الحسود الحقود ، أو المنافق المرائي ، أو البخيل الشحيح ، أو المتكبر الجبار ، أو الحريص الشره ، أو المحب للمدح والثناء !(١) .

ويجب علينا ألا نعجب اذا رأينا اخوان الصفاء يضعون هذه الشروط القاسية فى انتقاء الاصحاب والاصدقاء و (الاخوان) ، اذ ان اكتساب الاصدقاء والاخوان كمثل اكتساب الاموال ، بل أكثر تعبا ، فان من الناس من يفنى عمره فى طلب صديق موافق فلا يجد (٢) . وهم يقصدون من كل ذلك ان الحصول على (أخ) صالح و(عضو) ناجح هو أمر واجب .

* * *

الدولة :

رأيهم فى الدولة ليس جديدا ، هو رأى كثيرين من قبلهم ،

---

(١) ج ٤ : ١٠٩ .

(٢) هذا ما تعمل به الرهبنات (الاديرة المسيحية) ايضا . ذلك انها تجرب الشخص الذى يريد أن يكون راهبا (أخا) مدة طويلة ، وتمتحنه امتحانا شاقا قد يطول أمده الى تسع أو عشر سنوات . ومن التجارب القاسية انها لا تقدم اليه الاكل فى موعده ، أو تحرمه منه بين آن وآخر ، لترى رد الفعل الذى يتركه عملها فى نفسه ، ونوع الاستجابة التى يقوم بها ، وهل جاء محبة فى الاكل والراحة ، أم محبة فى الاخوة الحقة ولاجل الدين . والفرق بين هذا وبين رأى اخوان الصفاء واضح ، اذ ان اخوان الصفاء جماعة سرية ، وبحكم السر والتكتم لانجاح الدعوة طالبوا بتلك المطالب والاوامر .

كما انه نتيجة منطقية لحوادث التاريخ • فقد قالوا : ان « كل دولة لها وقت منه تبتدىء ولها غاية اليها ترتقي وحد اليه تنتهى • فاذا بلغت الى أقصى مدى غاياتها ومنتهى نهاياتها أخذت فى الانحطاط والنقصان ، وبدأ فى أهلها الشؤم والخذلان ، واستأنف فى الاخرى القوة والنشاط والظهور والانبساط ، وجعل كل يوم يقوى هذا ويزيد ، ويضعف ذلك وينقص ، الى أن يضمحل الاول المتقدم ويتمكن الحادث المتأخر »[1] • وينطبق هذا على دولة الخير ودولة الشر على

---

(١) ج ١ : ١٣٠–١٣١ • ج ٣ : ١٤ • ج ٤ : ٢٣٤ • أخذ ابن خلدون بمثل هذا الرأى (انظر ص ١٤٨ من مقدمته) ، وزعم ان باستطاعته أن يعين عمر الدولة الطبيعى •• اذ يرى ان الدولة لا تعيش أكثر من ثلاثة أجيال ، ذلك لان عمر الدولة محدود • ويشبه أدوار حياة الدولة بأدوار حياة الانسان من طفولة وفتوة وشباب •• الخ • (انظر مقدمته ص ١٤٢ • وكتاب « فلسفة ابن خلدون الاجتماعية » لطه حسين ص ١٢٣–١٢٤ ، القاهرة) • ويقول هربرت سبنسر ايضا بفكرة ابن خلدون فى تعيين عمر الدولة • ولا حاجة بنا لمناقشة ابن خلدون ، فرأيه لا يمكن أن يكون صحيحا تماما ولا سيما فيما يتعلق بتحديد عمر الدولة •

ومما هو جدير بالذكر ، ادعاء اخوان الصفاء ، وادعاؤهم طريف ، بأن رأيهم هذا ، عن الدولة ، كان نتيجة ملاحظة وتجربة فى حياتهم اليومية ، ولا سيما فى الزمان • يقولون : ان الزمان نصفه نهار مضيء والنصف الآخر ليل مظلم ، والزمان ايضا نصفه صيف حار ونصفه شتاء بارد •• وهما يتداولان فى مجيئهما وذهابهما ، كلما ذهب هذا رجع ذاك ، وتارة يزيد هذا وينقص ذلك ، وكلما =

السواء ، اذ تارة تكون القوة والدولة لاهل الخير ، وتارة تكون لاهل الشر . ودولة الخير عندهم تبدأ من قوم فضلاء أخيار يجتمعون ويتفقون على رأى واحد ويتناصرون ولا يتخاذلون ويتعاونون ولا يتقاعدون عن نصرة بعضهم بعضا ، ويكونون كانسان واحد فى جميع أمورهم(١) .

يرى اخوان الصفاء ان لابد للدولة من دين ، ولابد للدين من دولة ، فهما متلازمان ، ولكن الدين هو المقدم ، ولذا لابد للملك أو الرئيس من دين ، يدين به تابعوه أيضا ، ويأمرهم باقامة سنته طوعا أو كرها(٢) . هذا الرأى كان له أهمية كبيرة لاخوان الصفاء ، فكانوا يشهرونه فى وجه الناس ولا سيما العامة منهم ، وادعوا ان الدولة التى ليس لها دين يدين به الناس لهى أمة تسير نحو الفناء .

= نقص من أحدهما زاد فى الآخر بذلك المقدار ، حتى اذا تناهيا الى غايتهما فى الزيادة والنقصان ابتدأ النقص فى الذى تناهى فى الزيادة ، وابتدأت الزيادة فى الذى تناهى فى النقصان .. فلا يزالان هكذا الى أن يتساويا فى مقداريهما ... (ج ١ : ١٣٠-١٣١) .

(١) ج ١ : ١٣١ . ج ٤ : ٢٣٥ . هم هنا يقصدون بدولة الخير انفسهم . اننا نجد من كلامهم هذا أهدافهم البعيدة (انظر فصل « المدينة الفاضلة ») .

(٢) ج ١ : ٢٢٣ . ج ٢ : ٣٠٨ . ج ٤ : ٣٣ . ولعل هذا هو السبب فى ان « اهل الديانات كان يقتل - قديما - بعضهم بعضا طلبا للملك والرئاسة ، كل واحد يريد انقياد الناس أجمع لسنة دينه وأحكام شريعته » ج ٢ : ٣٠٨ .

وليس من المستبعد انهم كانوا يقصدون ـ فى كلامهم هذا ـ دولة بنى العباس لانها كانت تسير نحو الانحطاط والدمار • ثم ان هدف اخوان الصفاء بيّن فى طلبهم للرئاسة ، الرئاسة التى يقولون ويدعون انهم يريدونها على دين متين • (انظر فصل « المدينة الفاضلة ») •

ان الدولة تتبع الرئيس ، وتتغير بتغير نفسية الرئيس(١) ، ولذا وجب أن يكون الرئيس عادلا صالحا لتبقى الدولة أطول مدة ممكنة • ولكن مصير الدولة كثيرا ما يتوقف على التنافس والتنازع بين طالبى الملك ، هذا النزاع الذى يؤدى الى الشغب واضطراب الامور وفساد النظام والبوار(٢) •

* * *

الرئيس :

الرئاسة ، عندهم ، نوعان : روحانية وجسمانية •

الرئاسة الروحانية : كرئاسة أصحاب الشرائع الذين يوجهون الناس للتعبد ويقيمون العدل •

والرئاسة الجسمانية : كرئاسة الملوك والجبابرة الذين ـ فى رأيهم ـ « ليس لهم سلطان الا على الاجسام بالقهر والغلبة والجور والظلم ، ويستعبدون الناس ويستخدمونهم قهرا فى اصلاح أمور الدنيا

---

(١) ج ٤ : ٢٢ •

(٢) ج ١ : ٢٣٣ •

وشهواتها والغرور بلذاتها وأمانيها »(١) .

ولعلهم كانوا يقصدون بالرئاسة الجسمانية الحكم الذى كان سائدا آنذاك . واذا كنا قد وجدنا ، بين السطور ، انهم يحبذون الرئاسة الروحانية ، فان ذلك ليس الا تغطية لموقفهم أو دعاية لهم والا فلا يعقل أن تكون هناك رئاسة دون أن يكون لها غرض مادى . ويبدو ذلك الموقف فى مطالبتهم أو ادعاؤهم بمدنية روحانية لها أهداف خاصة(٢) .

المجتمع محتاج ، اذن ، الى رئيس يرأسهم ويحكم بينهم فيما يختلفون فيه ويتازعون ، ويمنع الظالم القوى من التعدى على الضعيف المظلوم ، ويأمر الناس باتباع الشريعة(٣) .

هذا هو الرئيس الذى يريده اخوان الصفاء . والمهم عندهم أن يحفظ الرئيس الناموس على الناس ويأمرهم بتأدية موجبات فرائضه ، حتى لا يندرس . لان معظم أهل الشرائع النبوية والفلسفية لو لا خوف السلطان لتركوا الدخول تحت أحكام الناموس ، ولما اهتموا به . وهذا رأى جرىء جدير بأن يؤخذ بنظر الاعتبار . اذ انه حتى

---

(١) ج ٤ : ١٨١–١٨٢ . يميز ابن خلدون بين الرئاسة والملك فيقول : « ان الرئاسة انما هى السؤدد.. وصاحبها متبوع.. ولا تكون الا بالغلب ، والغلب انما يكون بالعصبية . وأما الملك فهو التغلب والحكم بالقهر » . مقدمته – ص ١٣٩–١٤٠ .

(٢) راجع الفصل الثالث .

(٣) ج ٣ : ٢٩٥ . ج ٤ : ١٨١ ، ١٨٩ .

فى الوقت الحاضر لا يمكن الخروج على أحكام الناموس ، فهناك قوانين تمنع ذلك .

* * *

ولكن كيف يجب أن يكون الرئيس ؟

أيكفى أن يكون لكل واحد منهم عقل يعرف به القبيح فينزجر عنه ، ويعرف الجميل فيأمر به ؟

ان اخوان الصفاء يذكرون عدة خصال هى التى يجب أن تتوفر فى الرئيس :

(١) أن يكون تام الاعضاء ، قوية قوائمه على الاعمال التى من شأنها أن تكون بها ومنها ، ومتى هم أن يقضى عملا أتى عليه بسهولة .

(٢) أن يكون جيد الفهم ، سريع التصور لكل ما يقال له .

(٣) أن يكون جيد الحفظ لما يفهمه ولما يسمعه ولما يذكره ؛ وبالجملة لا يكاد ينسى شيئا منها .

(٤) أن يكون فطنا ذكيا .

(٥) أن يكون حسن العبارة ، يواتيه لسانه على ما فى قلبه وضميره بأوجز الالفاظ .

(٦) أن يكون محبا للعلم والاستفادة ، منقادا له ، سهل القبول لا يؤلمه تعب العلم ولا يؤذيه الكد الذى يلحقه .

(٧) أن يكون محبا للصدق ، وحسن المعاملة .

(٨) أن يكون محبا للعدل وأهله ، مبغضا للجور والظلم

وأهله • يرثى لمن حل به الجور ، عدلا غير صعب القياد ولا جموح ، وان دعى الى الجور والقبيح لا يجيب •

(٩) أن يكون قوى العزيمة على الشيء الذى يرى انه ينبغى أن يفعل ، جسورا مقداما غير خائف ولا ضعيف النفس •

(١٠) أن يكون كبير النفس ، عالى الهمة ، محبا للكرامة ، تكبر نفسه بالطبع عن كل ما يشين من الامور ويشنع ، وتسمو همة نفسه الى أرفع الامور مرتبة وأعلاها درجة •

(١١) أن يكون غير شره فى الاكل والشرب واللذات الجنسية (١) •

(١٢) أن يكون المال وسائر أعراض الدنيا هينة عنده ، زاهدا فيها (٢) •

هذه هى الخصال التى يريدها اخوان الصفاء فى الرئيس • وهى نفسها التى أرادوا تطبيقها لو تم لهم ما أرادوا من قلب الوضع السياسى القائم آنذاك • هذه الخصال قلما تجتمع فى رئيس • ان

---

(١) ويرون أن شهوات وملذات الملوك والجبابرة والفراعنة القدماء والوزراء وغيرهم كان لها تأثيرها الكبير فى زوالهم (ج ٣ : ٢٧٣) •

(٢) ج ١ : ٢٧٧ • ج ٤ : ١٨٢–١٨٣ • قال بهذه الخصال الفارابى (فى مدينته الفاضلة) • وقد لاحظنا ان عبارات اخوان الصفاء تتكرر نفسها فى هذا الكتاب ص ٨٧–٨٨ • ان أول من حدد الخصال والصفات للرئيس هو افلاطون (فى جمهوريته ، ص ٤٥–٤٧) •

الرئيس الذى تجتمع فيه هذه الخصال يندر أن نجده لو قلبنا صفحات التاريخ الطويل(١) . ومهمة الرئيس ليست سهلة وانما فى غاية الصعوبة والخطورة ؟ فعليه ، بالاضافة الى تلك الخصال ، أن ينزل الى السوق والشارع .. أن يتعرف على رعيته الصغير منهم والكبير ، الحر والعبد ، الشريف والدنىء ، العالم والجاهل ، الغنى والفقير ، ويعرف أحوالهم وظروفهم .. وحينذاك يستطيع أن يكون عادلا (٢) . وفى ذلك كله صلاح الجمهور والنفع العام . فان الغرض من الرئيس ليس اصلاح نفسه أو اصلاح أنصاره وأتباعه الموجودين فى زمانه فقط ، بل غرضه اصلاح الجمهور(٣) .

* * *

ولكن اذا أصبح الرئيس جائرا ، يملك رقاب الناس بالقهر والغلبة ، ويستعبدهم جبرا وكراهية ، ويحكم كما يشاء ، ويرفع ويكرم من يشاء ، ويبعد من يريد ممن يخالفه فى الرأى ، ويعذب ويقتل ... فماذا يكون حكم الناس عليه ؟ وكيف يجب أن يقابلوه ؟

---

(١) وهم يعترفون ان خصال الملوك ليست كخصال الانبياء (ج ٤ : ٣٤) .

(٢) يذكر اخوان الصفاء قصة أحد ملوك الهند الذى دنت وفاته فأوصى ابنه بوصايا عديدة ليكون ملكا صالحا ، ومنها : ترك الظلم والجور ، وأن يمتاز بالكرم والسخاء وسماحة النفس ، وصدق القول ، واداء الامانة والوفاء بالعهد ، والعفو عند القدرة ، وأن تكون المروءة غالبة للشهوات .. (راجع ج ٣ : ١٧٨–١٨١) .

(٣) ج ٤ : ١٨٦–١٨٨ .

يقول اخوان الصفاء : انه « اذا خرجنا من مملكته وفررنا من سلطانه ، فلا عيش لنا فى الوجود فى هذه الدنيا الا عيشا نكدا • لاننا قد نحتاج فى لذة العيش وصلاح المعاش الى الجم الغفير من المتعاونين فى المدن والقرى ، ولابد لهم من سلطان (رئيس) يملكهم ويرأسهم ويحكم بينهم فيما يختلفون فيه ويتنازعون ، ويمنع الظالم القوى من التعدى على الضعيف المظلوم ...(١) » •

والتناقض واضح فى قولهم هذا ، اذ كيف يستطيع هذا الرئيس أن يحكم بينهم ، ويمنع الظالم القوى من التعدى على الضعيف المظلوم ، وهو نفسه ظالم قوى جبار جائر ، يعتدى على الضعيف المظلوم المسكين ..؟ • وبالرغم من أن هذه الحجة واهية جدا ، فان

---

(١) ج ٣ : ٢٩٥ • انظر ايضا ج ٣ : ٣٥١ • للخوارج والمعتزلة رأى آخر • فالخوارج يرون أن الامام أو الرئيس اذا خالف أوامر الشريعة ولم يطبقها بدقة وجب القيام عليه وخلعه • وهم يقولون بالثورة على السلطان الجائر • ولذا قاوموا الامويين ، اذ اعتبروهم ظالمين ، كذلك قاوموا الزبيريين فى العراق والعباسيين فى العصر الاول •

والمعتزلة تقول بالخروج على السلطان (الرئيس) والثورة عليه اذا كان الناس أكثرية • وهى تحدد ذلك بشرطين أساسيين :

اولا ـ يجب الامكان والقدرة على هذا الخروج •

ثانيا ـ لا يكون الخروج الا مع امام عادل •

(راجع « مقالات الاسلاميين » للاشعرى ، ص ٤٦٦ • راجع ايضا « فلسفة المعتزلة » ج ٢ : ص ١٥٦ـ١٥٧ ، للدكتور البير نصرى نادر) •

قولهم هذا يدل على ضعف تام ، واستسلام مشين ، وخضوع للظلم الذى لا يقره منطق ولا يرضى به قانون • ولعلهم كانوا يبررون هذا الضعف فى أنهم كانوا مقبلين على الحكم وأرادوا التوصل اليه ، ويخشون أن يفشلوا ـ هم ايضا ـ فى حكمهم ، وهم أعلم الناس بأن من يفشل فى الحكم يكون جائرا مستبدا طاغيا !• ولعلهم أرادوا بذلك « الجم الغفير من المتعاونين فى المدن والقرى » أن يبقى على حاله كى لا ينقص عدده اذا اتخذوا أى موقف ضد (الرئيس) •• أى انهم يريدون مثل هذه الفرص والاحوال والظروف لكى يزدادوا عددا ، ما داموا على رؤوس الساخطين على الحكم القائم حينذاك •

ثم انظر قولهم فى موضع آخر من رسائلهم(١) كيف يبررون رأيهم فى السلطان الجائر : « •• ان السلطان الجائر قصير العمر ، لان الله قاصم كل جبار عنيد ومهلك كل مارد ومعتد ، وهو منصف المظلوم من الظالم » • وبالرغم من التناقض بين القولين ، فان هذا القول أكثر استسلاما من سابقه ، وفيه نوع من الضعف والاتكال(٢) •

ثم ان لهم قولا آخر لتبرير موقفهم وهو « ان العقلاء الاخيار لا يحتاجون الى رئيس يرأسهم ويأمرهم وينهاهم ويزجرهم ويحكم عليهم ، لان العقل والقدرة يقومان مقام الامام(٣) » •

---

(١) ج ٣ : ١٧٧ •

(٢) لم يحددوا أو يوضحوا قولهم بالسلطان قصير العمر ، وان الله قاصم كل جبار عنيد ، ولم يشرحوه •

(٣) ج ٤ : ١٨٩ • لا نعجب اذا رأيناهم يعطون للعقل مكانة عليا ، فهذا هو رأيهم ، يؤكدون عليه كثيرا ، وهو رأى (المعتزلة) ايضا •

الفصل الثالث

مدينة اخوان الصفاء الفاضلة

لم يتطرق الباحثون والمستشرقون الى هذا الموضوع (١) . غير انى وجدت ان اخوان الصفاء قالوا بمدينة فاضلة ، وبحثوا ذلك فى سطور قليلة ـ متفرقة فى رسائلهم ـ . ويجب أن نتوقع ذلك ، كنتيجة طبيعية لتأريخهم وحركتهم . فهم جماعة ـ سرية ـ كانت لهم أهداف ومطامع ، وكانوا يريدون الحكم ، فليس من المستبعد اذن ان يتكلموا فى بدء دعوتهم عن مثل هذه المدينة .

* * *

هم يؤكدون على (التعاون) ، لانه الاساس الاول لبناء المدينة . ويؤكدون ـ أيضا ـ على نبذ الانانية الفردية ، لان التعاون لا يتم الا بين اثنين أو أكثر . ان اتخاذ (الاخوان) مهمة شاقة ، وهم على حد قولهم « أعز من الكبريت الاحمر ! » ، اذ يجب التأكد من اخلاقه وسيرته ، ويجب أن يجرب تجربة كافية ، ثم يجب أن تتفق الرغبات

---

(١) هناك كتب قليلة (نوهت) عن وجود هذه المدينة . غير انى لم أجد كتابا عن اخوان الصفاء يبحث فى هذه المدينة .

والميول والطبائع لتصفوا الصداقة ويتم التعاون • وصداقة اخوان الصفاء لا تتزعزع ، لانها ليست خارجة من ذاتهم ، فهى صداقة قرابة رحم •• « ورحمهم أن يعيش بعضهم لبعض ويرث بعضهم بعضا •• يرون ويعتقدون انهم نفس واحدة فى أجساد متفرقة » ، وفى كل الظروف والاحوال • ان مثل هذا (الاخ) يجب أن يفضل على بقية الاصدقاء والاقرباء والجيران والاشقاء والابن والزوجة • ! (١)

ولاخوان الصفاء (اخوان) واصدقاء من مختلف الطبقات ، فى انحاء البلاد ، فمنهم أولاد الملوك والوزراء والكتاب والولاة ، ومنهم أولاد التجار ، ومنهم أولاد الفقهاء والعلماء والادباء ، ومنهم العمال •• يقوم برعايتهم (اخوان) آخرون ترسلهم اللجنة المركزية لتوجيههم وتعليمهم • وهم يوجهون نداءا الى جميع (الاخوان) المؤازرين للعمل معا لتحقيق غايتهم (٢) •

فالاتحاد والتكاتف بين أفراد المدينة (أى بين أفراد جماعتهم) واجب • وهم يقولون صراحة ان « ليس هناك تعاون أحسن من تعاون اخوان الصفاء » ، لان هذا التعاون فى سبيل غاية تهم جميع (الاخوان) •

ومن الشروط المهمة للتعاون ، ولكى يكون (الاخوان) أصفياء :

---

(١) ج ٤ : ١٠٨ـ١١٢ • انظر ايضا ج ٤ : ٢١٦، ٢١٨ـ٢١٩ ج ٣ : ٣٥١ •

(٢) ج ٤ : ٢١٤ـ٢١٥ ، ٢٣٥ـ٢٣٨ •

(١) الكشف عن الجهالات المتراكمة والتخلص منها .

(٢) التخلص من الآراء الفاسدة .

(٣) التعاون لن يقوم الا بالمحبة والرحمة والشفقة والرفق والمساواة (١) .

فاذا تمت هذه الشروط ، فينبغى « أن نتعاون ونجمع قوة أجسادنا ونجعلها قوة واحدة ، ونرتب تدبير نفوسنا تدبيرا واحدا ، ونبنى مدينة فاضلة روحانية .. »(٢) .

أما عن بناء المدينة ، فقالوا ان بناءها لا يكون على وجه الارض، لانه يصيبها من (الامواج) والاضطراب ما يصيب أهل المدن التى تقع على سواحل البحار ، ولا يكون فى الهواء لكيلا يصعد اليها (دخان المدن الجائرة) فتكدر (أهويتها) ، بل ينبغى أن تكون مدينة (الاخوان) مشرفة على سائر المدن فى كل الاوقات. أما أساس

---

(١) ج ٤ : ٢١٩ . ان التعاون بين المجتمع ، وقيام المجتمع على المحبة والشفقة والرحمة هى فكرة نستطيع ان نرجعها الى الفلسفة الهندية القديمة . ذلك ان البوذية سبقت الفلسفات جميعا وقالت بالاخوة والشفقة ، لانها تعتبر الناس عنصرا واحدا . وأخذ بهذه الفكرة فى العصور الحديثة (شوبنهاور) . واما الفلسفة اليونانية فتقول بالمجتمع القائم على العدل .

(٢) ج ٤ : ٢٢٠ . يرى «القديس اوغسطين » ان المدينة الحقة هى التى تكون فى السماء (راجع كتابه مدينة الله City of God) . ان اوغسطين قال بهذا وكان هدفه روحانيا محضا ، غير ان لاخوان الصفا هدفا وغاية من قولهم بهذا .

هذه المدينة فيكون على (تقوى الله) كيلا ينهار بناؤها ، ون يشيد بناؤها على (الصدق) فى الاقاويل والتصديق فى الضمائر • وأما الاركان فتتم على الامانة والوفاء[1] ••

وأما أهل (المدينة) فيجب أن يكونوا أخيارا حكماء فضلاء ، مستبصرين بأمور النفوس والاجساد ، ولهم سيرة حسنة (يتعاملون بها فيما بينهم) ، وان تكون لهم سيرة اخرى (يعاملون بها أهل المدن الجائرة)[2] •

وقد قسموا للناس فى هذه المدينة الى طبقات أربع رئيسية :

(١) أرباب الصنائع والعمال •

(٢) ذوو الرئاسات (ذوو السياسة) : ومهمتهم مساعدة (الاخوان) ومراعاتهم والتحنن عليهم •

(٣) الملوك (ذوو الامر والنهى)[3] : ومهمتهم ازالة الخلاف

---

(١) راجع أقوالهم فى المدينة الفاضلة الروحانية : ج ٢:١٩ ج ٤ : ٨٥ ، ١١٩ ، ١٨٧ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٢٢–٢٢٣ ، ٢٤١–٢٤٢

(٢) ج ٤ : ٢٢٠ • كان للرومان فكرة (هى نفس فكرة أرسطو أيضا) وهى أن (السيد) يجب أن تكون له سيرتان : سيرة يعامل بها سيدا ثانيا (من طبقته) ، وسيرة اخرى يعامل بها عبدا (من غير طبقته) • ولا يجوز للسيد ان يعامل العبد نفس المعاملة التى يعامل بها السيد ، ففى ذلك انتقاص لشرف السيد وامتهان لكرامته ! • وبالطبع فان اخوان الصفاء لا يقصدون هذه الفكرة ، بل قالوا بتلك السيرتين فى مدينتهم الفاضلة ليس الا لحفظ اسرار (الاخوان) ، وبقاء وحدتهم وتكاتفهم •

(٣) يضعون للرئيس شروطا قاسية (ارجع الى موضوع الرئيس وراجع ج ١: ٢٧٧ ، ج ٣ : ٤٢٧) •والشخص الذى تكون

اذا حصل ، واتباع الرفق واللطف مع المخالفين .. للمحافظة عليهم!

(٤) الالهيون (ذوو المشيئة والارادة)[١] .

هذا غير المتعلمين والمفكرين ..

أما المرأة فليس لها نصيب من بحثهم فى المدينة ؟ فهى مهملة ، وليس هذا بغريب اذا علمنا رأيهم فى المرأة ومبلغ احتقارهم لها [٢] .

ولا يسمح اخوان الصفاء لاى كان بالدخول الى هذه المدينة الا من كان (علمه) مساويا (لعلمهم) ، وحجتهم فى ذلك ان من حولهم « أربعة أسوار مبنية من جهالات الناس ، ما بين كل سورين خندق من سوء أعمالهم وفساد آرائهم ورداءة اخلاقهم .. » [٣]

* * *

عنده هذه الشروط يحق له ان يكون رئيسا . وفى هذه الحالة يجب طاعة الرئيس ، اذ ليس هناك بلية « أشد من عصيان العقلاء للرئيس الفاضل وعداواتهم له .. » ج٣ : ٤٢٧ . والعقل هو الحكم بينهم وبين رئيسهم ، فاذا خرج عن موجباته تبرأوا منه (ج ٤ : ١٨١).

(١) ج ٤ : ١١٩ـ١٢٠ ، ٢٢٢ـ٢٢٣ .هذا التقسيم كان بعضه موجودا فى زمنهم ، كما انهم كانوا يهتمون بهذا التقسيم ومحاولة تطبيقه أثناء اجتماعاتهم ، اذ كانوا منبثين متفرقين فى انحاء البلاد .. وهناك ، حيث كانوا فى البلاد ، مجلس خاص يجتمعون فيه فى اوقات معلومة لا يداخلهم فيه غيرهم ، يتذكرون فيه علومهم ويتحاورون اسرارهم ...الخ. ج١ : ١٦٩ ، ٣٠٨ ، ٣٣٠ ، ٣٦٢ . ج٢ : ١٩ . ج٤ : ١٠٥ ـ ١٠٧ .

(٢) ارجع الى موضوع (السياسة النفسانية) ، وراجع فصل (المرأة) .

(٣) ج٤ : ٢٢١ ، ٢٤١ ـ ٢٤٢ .

هذه هى مدينة اخوان الصفاء الفاضلة ـ الروحانية ـ • ويجب ألا نأخذ بكلامهم كما هو ، ان فى ذلك خطأ وأى خطأ • كما يجب أن نميز بين مدينتهم الفاضلة الروحانية وبين المدن الفاضلة التى قال بها أفلاطون (فى جمهوريته) ، والفارابى فى (آراء أهل المدينة الفاضلة) ، وتوماس مورفى (يوتوبيا)(١) • ولا يعنينا فى هـذا التمييز أن تكون كل المدن ـ التى قال بها هؤلاء ـ خيالية ، فذلك يبدو أمرا طبيعيا ! • ولكن من الفروق ان افلاطون وتوماس مور لم تكن أهدافهما واضحة ، وان كانا ساخطين على الاوضاع العامة فى زمنهما • وان الفارابى لم يكن يقصد بها غاية معينة ولم يكن له هدف من وراء ذلك • بعكس اخوان الصفاء الذين كان لهم هدف من قولهم بهذه المدينة الفاضلة ـ الروحانية ، ولو انهم لم يبحثوا فى هذه المدينة بحثا مستقلا ، ولم يسهبوا ، بل بينوا آراءهم فى سطور قليلة متفرقة هنا وهناك ، على نقيض المفكرين الآخرين •

نعم ، ان اخوان الصفاء بينوا آراءهم وأفكارهم فى هذه المدينة ؟ هذه الافكار التى هى من خططهم للوصول الى هدفهم (الحكم) ؟

---

(١) راجع مثلا :

اولا ـ جمهورية أفلاطون

ثانيا ـ المدن الفاضلة : محمد يونس الحسينى •

ثالثا ـ المدينة الفاضلة : فؤاد محمد شبل •

More's Utopia; Translation by: Ralph Robinson Introduction by H. G. Wells.

وكان فى نيتهم تطبيق ما يمكن تطبيقه اذا تم لهم النجاح الكامل • هذه الافكار بعيدة عن الواقع ـ واقعهم آنذاك ـ بعدا سحيقا ، وهذا مما لا شك فيه • غير انهم يقرون ايضا انها مدينة الاخيار والحكماء والفضلاء فحسب ، لان الاتفاق والتعاون بين هؤلاء ممكن فى اعتقادهم ، أما غيرهم من الناس فليس من السهولة قبولهم الا بعد أن يتفهموا مبادءهم وميولهم تمام الفهم ، وأن يتعاونوا معهم على ما أرادوا ، سرا وعلانية (١) • لذلك فهم يحثون الناس على طلب العلم ، وأن يكثروا منه ؛ وهى طريقة تساعدهم فى مهمتهم ، اذ ان هؤلاء باستطاعتهم أن يتفهموا مبادىء (الاخوان) بيسر وسهولة أكثر من غيرهم ، لا سيما تلك المبادىء الخاصة بالحكم ، وباستطاعتهم مقارنتها بالحكم الموجود آنذاك والذى كان يمثل الفساد والطغيان •

أما عن قولهم ان أساس المدينة يجب أن يكون على تقوى الله كيلا ينهار بناؤها ، وأن يشيد بناؤها على الصدق فى الاقاويل والتصديق فى الضمائر ، وتتم أركانها على الوفاء والامانة ••• الخ ، فقصدهم هو تنبيه العامة وجميع الناس الى مساوىء الحكم فى ذلك الوقت وانه لا يقوم على هذا الاساس الذى يريدونه هم لمدينتهم الفاضلة ـ الروحانية ـ •

---

(١) راجع ج١ : ١ ، ٢٠ ، ١٣١ ، ١٩٧ . ج٣ : ١٨١ ، ٢٩٧ ، ٤١٩ • ج٤ : ٨٥ ، ٩٩ ، ١٠٥ ، ١٠٧ ، ١٠٩ ، ١١٠ ، ١١٢ ، ١٢٧ ، ١٧٩ـ١٨٠ ، ١٨٧ ، ١٩٧ ، ٢٠٢ ، ٢١٤ ، ٢١٦ ، ٢١٧ ، ٢١٨ـ٢١٩ ، ٢٢٥ـ٢٢٧ ، ٢٣٦ـ٢٤٢ •

وأما أنها مدينة فاضلة روحانية ، يكون بناؤها فى السماء وتشرف على باقى المدن الاخرى ؟ فذلك اسلوب القصد منه تحبيب الناس الى السماء والآخرة أو بالاحرى الى الدين ، واظهار حكم العباسيين بمظهر الملحد البعيد عن الدين ، وانهم يريدون انقاذه ! •

وأما أنهم يدعون (١) بأنهم لا يحسدون ملوك الارض ولا يتنافسون على الملك ، ولكنهم يطلبون ملكا سماويا (!!) ، فهو أيضا نوع من التغطية والتمويه ، واضفاء طلاء على المعدن الاصلى الواضح وهو الحكم الدنيوى •

فكأن اخوان الصفاء يتبعون طريقة التأثير على الناس بهذا الاسلوب ، وهو اسلوب كان يجد نجاحا فى ذلك الوقت ؟ كما ان الاعضاء البارزين فى الجماعة والمعروفين منهم كانوا محبوبين جدا بين الناس ومتواضعين كثيرا • فليس من المستبعد ، اذن ، أن نجدهم يميلون الى هذا الاسلوب فى التأثير والترغيب ، وهو اسلوب زاد من نفوذهم فيما بعد •

---

(١) ج٤ : ٢١٥ •

الفصل الرابع

المرأة

عند بحثنا لاصناف المجتمع ولمدينة اخوان الصفاء لم نجد أى اشارة للمرأة • فنظرة اخوان الصفاء الى المرأة فيها كثير من الاحتقار والازدراء • كما أن رسائلهم تكاد تكون خالية من ذكرها • بل لقد جردوها من كل القيم • انهم يرون أن وظيفة المرأة ليس الا فى النسل ، لسبب واحد هو أنهم لا يريدون انقطاع النسل من الارض عن طريق الانسان نفسه ! • فهى ، اذن ، ليس أكثر من زوجة ، مكانها البيت ، وألا تكون الا للذى لا يستطيع التعفف ! • ومع ذلك عليها أن تطيع بعلها ، وتبقى فى منزلها وتتصون ، لان فى ذلك صلاحها ـ كما يدعون (١) ـ • وسبب ذلك كله ـ كما يدعون أيضا ـ ان النساء « سريعات التلون ، كثيرات التغير ، يتغيرن مع الساعات ، كما أن استفسادهن سهل يسير الا من عصمها الله •• وقليل ما هم » (٢) •

---

(١) ج٣ : ٤٢٤ • ج٤ : ٢٩٨ •

(٢) الاصوب : وقليل ما هن • ج٤ : ٢٩٩ •

ان منزلتها الاجتماعية ومكانتها بين الناس مع الخدم (١) ، ومع المستضعفين (٢) ، ومع العامة والجهال فى أخلاقهم وآرائهم ومذاهبهم (٣) . ولذا يتهمونها بالجهل وقلة الفهم وعدم المقدرة على التفكير وبأنها لا تنظر فى حقائق العلوم ولا تعرفها(٤) .

ولا يجوز للمرأة أن تحب رجلا ، فذلك من طبيعة الحيوانات (٥) ! . وهم فى مكان آخر(٦) يشبهون أفعال (القوة الشهوانية) بأفعال النساء . وهذا التشبيه وان كان يقلل من شأن المرأة الا أنه يناقض قولهم السابق فى محبة المرأة للرجل ، فان المحبة نوع من الهوى والشهوة والرغبة .

وعندى ، ان نظرتهم للمرأة هى أنها عنصر لا يصلح للاجتماع بهم وحفظ أسرارهم ، ولذلك أهملوها فى رسائلهم وأبعدوها . ويلاحظ ـ من رسائلهم ـ أنه لم تكن هناك امرأة فى جماعاتهم المنبثة فى كل مكان من العراق . كما ان رأيهم هذا بنوه على مكانة المرأة ـ بصورة عامة ـ آنذاك .

* * *

هذا هو رأى اخوان الصفاء فى المرأة . وهو فى الواقع يكاد

---

(١) ج٤ : ٢٦٥ .
(٢) ج٤ : ٣٤٩ .
(٣) ج٤ : ٥٠ ، ٥٦ .
(٤) ج١ : ٢٢٢ . ج٣ : ٢٩٣ . ج٤ : ٥٠ ، ٦٢ .
(٥) ج٣ : ٢٦٨ .
(٦) ج٤ : ٣٢٨ .

يمثل رأى كثير من الفرق الاسلامية والمفكرين والفلاسفة آنذاك .

فالمعرى ، مثلا ، متفق تماما معهم . والاحتمال أو الترجيح قوى فى أنه تأثر باخوان الصفاء ، لا سيما وقد كانت له اتصالات كثيرة معهم . ان شعر المعرى لا يخلو من أبيات كثيرة فى وصف المرأة على انها حيوان ليس غير (١) .

والفارابى لم يبحث فى المرأة الا عرضا من باب التشبيه .

وابن سينا ، وان كان قد بحث أكثر من الفارابى وتكلم عن نفسية المرأة فى بعض كتبه ككتاب (الاشارات) ، الا أنه لم يتجاوز فى قوله ما قاله اخوان الصفاء .

أما ابن رشد فلم يكن كهؤلاء ؛ فهو بالرغم من أنه لم يبحث فيها بحثا مستقلا الا أنه أشار الى آلام المرأة وعدم انصافها ، وطلب ـ فى سطور عديدة ـ أن يفسح لها المجال فى العمل واعطائها الحرية فى التفكير (٢) .

ولا حاجة بنا أن نسهب فى ذكر آراء المفكرين ، ولكننا نقول ان أول الفرق الاسلامية التى قالت وطالبت بحرية المرأة وأعطت لها مكانة محترمة هى الخوارج ، اذ قالت بأن المرأة يحق لها أن ترشح نفسها للامامة أو الخلافة اذا توفرت فيها الصفات والمؤهلات الكافية .. شأنها كشأن الرجل .

* * *

---

(١) راجع أشعاره ، ولا سيما اللزوميات .

(٢) انظر عرض الدكتور عمر فروخ للمرأة العربية فى كراسته (مقالات محللة فى الفلسفة الاسلامية) .

ان سبب تلك الآراء الرجعية التى قال بها مفكرو وفلاسفة الاسلام هو انهم لم ينظروا الى المرأة من الوجهة العقلية نظرة صائبة ، بالرغم من تقدمها البارز فى ميدان العلوم ، اذ عدوها جاهلة حمقاء ، ليس لها نصيب من الذكاء . بينما العلم الحديث ، ولا سيما علم النفس فى أبحاثه الاخيرة ، لا يقر هذا الرأى ، ويرى ان ليس هناك اختلاف فى تطبيق الذكاء واستعمال العقل . وهذه الابحاث لا تنكر وجود بعض الاختلافات بين الرجل والمرأة فى بعض الملكات العقلية كالتصور والتذكر ... الخ .

ان جعل المرأة فى مستوى العامة ومن لا ينظر فى حقائق العلوم ولا يعرفها ، والقول بأنها جاهلة حمقاء ، أمر لا يمكن قبوله اذا عرفنا أن المرأة كانت لها مكانة بارزة فى التعليم ، وفى عصر اخوان الصفاء أيضا . فقد سمعت عن الشيوخ ، ودرست على أيدى المحدثين والفقهاء ، وتقدمت فى شتى المجالات ، حتى ان منهن من كانت تقوم بتدريس الرجال ، وتمنح الاجازات لهم ، ومنهن من تولت المشيخة فى بعض الربط . حتى قيل ان عدد النساء اللواتى اشتغلن فى التعليم ، فى العصور العباسية ، كان كبيرا جدا . فابن النجار ، أحد الذين اهتموا بدراسة الحديث ، يقول انه تلقى علمه عن (٤٠٠) امرأة ، قمن بتدريسه شتى العلوم .

ولعل نظرة هؤلاء الفلاسفة والمفكرين كانت مبنية على أساس مركز المرأة الاجتماعى . والمرأة فى عصور الفلاسفة والمفكرين البارزين وان كانت قد تقدمت فى مجالات كثيرة ، وطرقت أبواب

العلم والادب والفن ، الا أنه لم يكن لها شأن كبير ، ولم يكن الرجل ينظر اليها نظرة المساواة ، لذلك لم يكن يهتم بها كثيرا • وساعدت الاحوال الاجتماعية آنذاك على اهمالها •

لقد جاء فلاسفة الاسلام ومفكروهم فى عصر كان المجتمع يتدهور تدهورا سريعا وينزع نحو الانحطاط والفناء • وساعد على نشوء رأيهم الحجاب الذى ادخل على الاسلام بعد الفتوحات الاسلامية ، ودخول الاقوام الاخرى من غير العرب فى الدين الجديد ، ثم تدخل الاتراك (١) • وثبت ذلك الحجاب سيطرة التتر ثم العثمانيين والفرس على العراق •• مما ساعد على انزواء المرأة تدريجا ، بعد أن كان لها نوع من الاحترام والجدارة فى بعض الميادين (٢) •

---

(١) ان أول من وضع نظام الحريم هو الوليد الثانى •

ـ وان المتوكل منع النساء من الاشتراك مع الرجال فى الحلقات الادبية والعلمية •

ـ وان القادر بالله أمر بمنع النساء من دخول المحلات التى فيها رجال ، كالمساجد والمدارس !

(٢) فى أوروبا ، وفى نفس العصر الذى كان يعيش فيه اخوان الصفاء ، كان الناس يعتقدون ان ليس للمرأة روح خالدة ، وانها كالحيوان لا اختلاف بينهما ! ، بل انهم استخدموها فعلا كما يستخدم الحيوان ، مما دعا الكنيسة الى ان تهب من مكانها وتعطى للمرأة حق الحياة كالرجل ، ودليلها ان نفس المرأة كنفس الرجل لا اختلاف بينهما • وقررت الكنيسة ـ بعد ذلك ـ ان من يعتبر =

الفصل الخامس

التربيـــة

يتدرج اخوان الصفاء فى ذكر التأثيرات التى تقع على الانسان منذ بداية تكوين الجنين حتى الرجولة .

فالجنين ، وهو فى الرحم ، لا علم له ولا تدبير ولا سياسة (١) . أى انهم يعلنون ان ليس هناك ما يؤثر فى الجنين وهو فى رحم أمه . ويستشهدون بالآية القرآنية : « والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا » .

= المرأة كحيوان لا نفس له ، فانها ـ أى الكنيسة ـ تعتبره ملحدا و (يرشق بالحرمان) .

هـذا وان افلاطون قديمـا كره المرأة حـين قال : ان الروح الشريرة لا تتقمص الا جسد امرأة أو حيوان أعجم !.

كما أن أرسطو لم يعط للمرأة كثيرا من الحقوق ، ويرى ان على المرأة أن تلزم بيتها وتهتم بشؤونه فحسب ! ، وان شرف المرأة عنده هو (صمت متواضـع) . وهـو نفس الرأى الذى يقـول به سوفوكلس فى قصته (أجاكس) ـ انظر (السياسة) لارسطو . الترجمة العربية ـ ك ١ . ب ٥ . ف ٨ .

(١) ج ٣ : ٤٢٦ .

فاذا خرج الطفل من الرحم ، فباستطاعة حواسه ، منذ تلك الساعة ، أن تدرك محسوساتها ؛ فيحس بالقوة الباصرة النور ، وبالقوة السامعة الصوت ، وبالقوة اللامسة الخشونة واللين ... الخ . غير انه لا يعلم معانى الكلام والاصوات الا بعد مدة ، ولا يستطيع أن يميز بين الصور . الا أنه على ممر الزمن يميز بين نغمة الام ونغمة الاب أو الاخوة والاخوات والاقرباء . وهكذا يزداد فهمه ومعرفته بالتدريج ما دام هو فى النمو والزيادة ، حتى يصل الى سن الرابعة ، ويسمونها « سنى التربية » ، حيث اكمال التربية واشتداد القوة وحصول الفهم والذهن والتمييز والتفكير (١) .

هذه السنوات الاربع الاولى مهمة فى حياة الطفل . ولا تقل السنوات التى تعقبها أهمية ايضا ، فهى التى تغير مجرى حياته القابلة ، ذلك ان السجايا والاخلاق تظهر بوضوح وبالتدريج بعد السنة الرابعة ، « كما يظهر زهر النبات وحبوبها ونور الشجر وثمارها وروائحها وألوانها وطعومها عند بلوغها وتمامها وكمالها ونضجها بحسب ما فى طباعها » (٢) .

وقد لاحظت ان اخوان الصفاء يؤكدون ان الطفل وهو فى الثامنة من عمره يظهر فيه حب الجمال وطلب الشهوات والتمتع باللذات ولا سيما اللذات الجنسية (٣) .

---

(١) ج ٢ : ١٢٩ ، ٣٧٩-٣٨٠ . ج ٣ : ٣٨٥ .
(٢) ج ٢ : ٣٨٠ .
(٣) ج ٢ : ٣٨٠ .

وقد يبدو هذا غريبا آنذاك • أما فى العصر الحديث فان (فرويد)(١) قد قال بهذا ، ولكن بصورة أوسع • فان من حقائق سيكولوجية فرويد الرئيسة قوله : بالطفولة الجنسية المكبوتة Repressed infamtile sexuality • فهو ينظر الى مص الاصبع « بحسبانه لونا من ألوان التصريف الجنسى ، وكذلك طريقة الطفل فى عض الاشياء وادخالها فى فمه ، وكذلك الاحتكاك بالغير ، أو الضرب ، أو الربت ، وحركات الذراعين والساقين الايقاعية التى يبدو انها تحدث لذة طفلية ، بل حتى التبرز والتبول ، والنظر الى الاشياء وابرازها ، وتمزيق الاشياء اربا والقذف بها •• وبالجملة : أى نشاط يحدث للطفل لذة حسية ونفسية »(٢) •

★ ★ ★

---

(١) زغموند فرويد Sigmund Freud زعيم (مدرسة التحليل النفسى) •

(٢) مدارس علم النفس المعاصرة لروبرت ودورث • الطبعة العربية ـ ترجمة : كمال دسوقى ٢٢٦ـ٢٢٧ ، ص ٢٣٣ـ٢٣٤ وقارنها أيضا مع النص الانكليزى Contemporary Schools of Psychology P. 178.

ـ ويؤكد (وارنر) العالم الاجتماعى الامريكى المعروف أهمية الجنس ولا سيما عند الاطفال • اذ يرى انه يبدأ مبكرا ويؤثر فيهم تأثيرا فعالا •

(W. Lloyd Warner: American Life — Dream and Reality — The University of Chicago Press. 1953, Chapter 4, PP. 90—93).

ان اخوان الصفاء لا ينكرون أهمية الغرائز (١) . ولكنهم مع ذلك يذكرون ان للنجوم والكواكب تأثيرا على الاطفال ، بالاضافة الى أثر الوالدين (٢) .

* * *

ان للبيئة ايضا الاثر الكبير فى تربية الطفل . فالعادات التى يحصل عليها من بيئته ومن محيطه تقوى الاخلاق المشاكلة لها . ويمثلون ذلك بطالب العلم الذى ينصرف الى البحث والدرس فيصبح حاذقا (٣) . ويجرى هذا الحكم على الاخلاق والسجايا . ذلك ان الطفل أو الصبى اذا نشأ مع الشجعان والفرسان وتربى معهم تطبع بأخلاقهم ويصبح مثلهم ، أو اذا نشأ مع النساء والمخانيث تطبع بأخلاقهم . وتأثير البيئة تبرز فى ان الاطفال والصبيان منذ الصغر يستطبعون بأخلاق الآباء أو الامهات أو الاخوة أو الاتراب والاصدقاء أو المعلمين ، ويذهبون أبعد من ذلك فيقولون ان هذا يمكن أن ينطبق ايضا على حكم الآراء والمذاهب والديانات (٤) .

وتأثير البيئة يبرز ايضا فى أن صناعة الآباء والاجداد تكون أنجع فى الاولاد من صناعة الغير ، ولذلك يكون فيها أحذق (٥) . ثم

---

(١) ج ٢ : ١٢٩ ، ٣٨٠ .
(٢) ج ٢ : ٣٧٨-٣٨١ .
(٣) ج ١ : ٢٣٦ .
(٤) ج ١ : ٦٠ ، ١٥٣ ، ٢٢٥ ، ٢٣٦ .
(٥) ج ١ : ٢٢٣ . قال أفلاطون بذلك .

يتطرقون الى اهتمام بعض الناس بصناعة معينة ولزوم عدم الخروج عنها[1] .

تتضح لنا من هذا ، ومن آرائهم الشبيهة المتفرقة فى رسائلهم ، أهمية المحاكاة والتقليد[2] ، وتأثير البيئة وكيف ان باستطاعة بيئة معينة أن تخلق شخصا معينا ، وكيف انها تقرر ـ بالاضافة الى أثر الوالدين ـ حياة الاشخاص وتصرفاتهم فى مستقبل أيامهم .

يذكرنى هذا برأى الاستاذ وطسن ، وتطرفه الشديد للبيئة[3] . فهو « بعد أن يرفض الغريزة ، وآثار العقل الوراثية .. » يؤكد ان « كل طفل سوى ، فى بيئة ومران صالحين ، ممكن أن

---

(١) يقصدون (نظام الطوائف) . وهو نظام من شأنه أن يجتمع جميع الذين يعملون فى مهنة واحدة معينة كالنجارة أو الصياغة أو الخياطة ، وذلك لتنظيم أعمالهم . وكان نظام الطوائف يعتمد على المران . وينقسم أعضاء (الطائفة) الى ثلاثة أقسام : الرؤساء ، والمساعدون ، والمتمرنون . ولا يستطيع (المتمرن) أن ينتقل الى مرتبة (المساعد) الا بعد امتحان ، وكذلك الشأن مع المساعد . هذا النظام نشأ فى اوروبا ، واندثر عندما سقطت الامبراطورية الرومانية ، ثم برز فى القرن الثالث عشر ولا تزال بعض الدول والاقوام تأخذ به الى الآن .

(٢) ج ١ : ١٥٣ .

(٣) جون برودس وطسن J. Broadus Watson (زعيم المدرسة السلوكية) . راجع :
Contemporary Schools of Psychology. By Robert S. Woodworth, London — 1951.

يكون منه أى نوع شئنا : طبيب ، محامى (١) ، فنان ، تاجر كبير .. بل وحتى متسول أو لص .. بغض النظر عن مواهبه واتجاهاته ، وميوله وكفايته ، وعنصر أسلافه .. » (٢) .

كما أن دوركهايم وغوستاف لوبون وجبرائيل تارد ووليم جيمس ومكدومل وغيرهم من علماء الاجتماع والنفس أكدوا أهمية المحاكاة والبيئة .

ويهمنا أن نذكر ايضا ان غاية التربية عند اخوان الصفاء هى اعداد الناس للعيش برفاه وسعادة . وهذا ما قال به ابن خلدون ، وسبنسر ايضا ؟ وما يختلف عن رأى أفلاطون وأرسطو ومونتسكيو الذين يرون أن التربية غايتها اعداد الناس للحكم .

* * *

وأخيرا نستطيع أن نقول ان آراء اخوان الصفاء فى التربية قيمة ، وبعضها جديدة ، ومنها ما سبقت آراء المفكرين ـ المحدثين والمعاصرين ـ بقرون عديدة .

* * *

الموسيقى (وتأثيرها فى النفوس) :

اذا كان الكثيرون من الفلاسفة ، ومنهم فلاسفة الاسلام ، قد

---

(١) الاصوب : محام . انظر الطبعة العربية . ص ١٣١ .

(٢) هو هنا أكثر تطرفا من اخوان الصفاء . اذ هو ينكر أى قابلية وأى أثر للغريزة والوراثة . وهذا ما لا يقره اخوان الصفاء ، وعلم النفس الحديث نفسه !. انظر كتاب (مدارس علم النفس المعاصرة) . النص العربى ص ١٣١ والنص الانكليزى ص ٩١ .

أغفلوا تأثير الموسيقى فى النفوس ، فان اخوان الصفاء لم ينسوا ذلك ، بل كتبوا رسالة خاصة بالموسيقى(١) ، أبدوا فيها كثيرا من الآراء القيمة التى تأخذ بها التربية الحديثة اليوم .

وليست لدينا أدلة كافية على ان كتاب (السياسة) لارسطو ـ وفيه فصل عن الموسيقى وتأثيرها فى النفوس ، ولا سيما الناشئة (٢) ـ قد وصل الى اخوان الصفاء ، أو ترجم فى عهدهم أو قبل ظهورهم . ولذلك يمكننا أن نقول ان اخوان الصفاء تأثروا ـ فى بحثهم عن الموسيقى ـ بالفيثاغوريين . يبدو ذلك جليا عند الكلام عن أنغام الافلاك ، وأسباب هذه الانغام ... الخ .

ان بعض المترجمات التى تبحث فى فلسفة الفيثاغوريين قد وصلت الى العرب ؟ وان التلاميذ الذين كانوا يأتون من سوريا وآسيا الصغرى والبلاد المجاورة للدراسة على يد فيثاغوراس ، ثم عودتهم

---

(١) لاخوان الصفاء رسالة خاصة بالموسيقى ، لم تعرف قبل عام ٣٣٤ . بحثوا فيها عن كيفية ادراك القوة السامعة للاصوات ، وفى امتزاج الاصوات وتنافرها ، وفى كيفية صناعة الآلات الموسيقية ، وفى تشبيه حركات الافلاك بانغام .. ثم تنتهى الرسالة بذكر بعض نوادر الفلاسفة فى الموسيقى . (راجع مقال المؤلف عن الموسيقى عند اخوان الصفاء فى مجلة الآداب : عدد تشرين الاول ١٩٥٣) .

(٢) وأرسطو يقر بأن القدماء يجعلون الموسيقى جزءً مهما من التربية . وقال ايضا بضرورة ادخال الموسيقى فى تربية الاطفال . (انظر كتاب السياسة ـ الترجمة العربية ـ من الباب الثانى الى الباب الرابع) .

ونشر آراء الفيثاغوريين بين الناس ؟ كل هذا يقيم دليلا على مدى تأثير الفكر الفيثاغورى على أفكار الناس ، بوجه عام ، واخوان الصفاء ، بوجه خاص ؟ اذ ان الفيثاغوريين كانوا يشكلون جماعة سرية ايضا .

اننا نرى ، ان فيثاغوراس نفسه كان متأثرا بالنحلة الاورفية . ولعل هـذه النحلة تأثرت بالبابليين . ذلك ان الفرس عندما أغاروا على البلاد اليونانية كان معهم كثيرون من البابليين .

واخوان الصفاء اذ يعرضون هذه الافكار ، انما يقدمون لنا آثارا للفيثاغوريين عظيمة تكاد تنطمر . وما يهمنـا بحثه هنـا هو تأثير الموسيقى فى النفوس ، وأثرها فى تربية الفرد .

* * *

يقدس اخوان الصفاء الموسـيقى (١) ، فهى عندهـم صناعـة استخرجتها الحكماء بحكمتها ، ومن الحكماء تعلمها الناس ، وتأثروا بها . ومما يدل على تقدير الناس لها انها كانت (ولا تزال) تستعمل فى الهياكل وبيوت العبـادات وعنـد القرابين . والامثلة كثيرة على ذلك . فالنبى داود كان يسـتعملها عنـد ترتيل مزاميره ، واستعملها (ولا يزال يسـتعملها) المسيحيون فى الـكنائس ، والمسـلمون فى المساجد « من طيب النغمة ولحن القراءة » عند تلاوة القرآن ، اذ ان

---

(١) الموسيقى عندهم نوع من أنواع الرياضيات (ج ١ : ٤٩) . ويعرفونها بأنها معرفة التأليفات والنسب بين الاشياء المختلفة والجواهر المتضادة القوى . (ج ١ : ٤٩ـ٥٠) . وتلمس فى هذا التعريف مدى تأثير الفيثاغوريين .

هذه الموسيقى تبعث فى النفوس شعورا بالخشوع • كما انها تزيد من رقة القلوب والعواطف(١) •

ان اخوان الصفاء لم ينكروا قط ان للموسيقى تأثيرات مختلفة فى نفوس مستمعيها ، ما دامت لذات (ورغبات) تلك النفوس مختلفة • ان تأثيراتها فى النفوس تظهر بصورة واضحة عند استعمالها فى حفلات الافراح والولائم والاعراس ، وتظهر كذلك عند ظهور المصائب والاحزان وفى المآتم(٢) •

ان من الالحان والانغام ما يثير الاحقاد ويحرك النفوس ويلهب فيها نيران الغضب والسخط • كما ان منها ما يسكن نيران الغضب والسخط ويبعد الاحقاد ويدعو الى الاخاء والمحبة والهدوء والسلام • ويأتى اخوان الصفاء بمثل ، أو بقصة طريفة هى : انه حدث أن اجتمع رجلان متخاصمان متغاضبان كانت بينهما منازعات كثيرة وخلافات جمة وأحقاد مستمرة ، فى مجلس للشراب • فلما دارت كؤوس الخمر بينهما عادت العداوة الى ما كانت عليه ، فالتهبت فى نفسيهما نيران الغضب والحقد ، وأراد كل منهما أن يضرب ويقتل صاحبه • وحدث أن كان هناك موسيقار ماهر ، شعر بأمرهما ، فما كان منه الا أن عزف ألحانا هادئة مسكنة ، جعلتهما يهدآن ؛ واستمر فى العزف حتى سكنت سورة الغضب عنهما ، وابتعد الحقد ، فقاما

---

(١) ج ١ : ١٣٤ـ١٣٥ •

(٢) ج ٢ : ١٣٤ ، ١٧٩ •

وتعانقا وتصالحا[1] !.

وهم لا ينكرون أثر المزاج والطباع ، اذ يقولون « ان لكل مزاج نغمة تشاكلها ولحن يلائمها »[2] . وعلى هذا اختلفت الالحان والنغمات باختلاف أمم الناس وأمزجتهم وطباعهم . وكان من نتيجة ذلك أن صارت لكل أمة من الامم ألحان ونغمات خاصة بها .

ان أى أمة اذا استمعت الى أنغامها وألحانها فانها تجد لذة وسرورا قد لا يجدها غيرها . وان فى الامة الواحدة نفسها فريقا يحب نغما أو لحنا معينا يلتذ به ، ولا يجد لذة فى غيره ؛ وآخر يحب لحنا آخر .. وهكذا . وغير هذا وذاك ، فان الانسان ـ الواحد ـ نفسه يلتذ بلحن ما ويحبه فى وقت ما ، ثم لا يلتذ به ولا يحبه فى وقت آخر[3] . ولا شك فى أن هذا ما نلاحظه نحن على أنفسنا فى كل وقت . أى ان رأيهم هذا لا يبعد عن الواقع أبدا .

* * *

ان اخوان الصفاء يحثون الناس على تعلم الموسيقى أو الاستماع والتقرب اليها . ذلك انها ـ على حقيقتها ـ تهذب النفوس ، وترهف

---

(١) ج ١ : ١٣٢ـ١٣٣ ، انظر ايضا مثلا آخر ج ٤ : ١٤٦ـ ١٤٧ . يقول أرسطو بأن طبيعة الالحان متى تنوعت تغيرت معها انفعالات المستمعين ؛ وان هناك ألحانا تحزن ، واخرى تسر وتحمس . (السياسة . الكتاب الخامس . ٢٩٩ـ٣٠٠ ، ٣٠٠ـ٣٠٦) .

(٢) ج ١ : ١٤٣ .

(٣) ج ١ : ١٤٣ . ج ٣ : ٢٦٧ .

الحس ، وتؤدى الى رقة العواطف والمشاعر • وهذه تؤدى ـ بدورها ـ الى أن يتمتع الانسان بأخلاق هادئة فيها رزانة وحكمة وروية وتؤدة ، كما انها تحدد نوع علاقاته باخوانه وزملائه ومن يحيط به من مخلوقات •

والموسيقى ـ عندهم ـ دواء النفس الذى يشفيها من آلامها ومحنها وأخطائها • واذا علمنا أن الطب الحديث يقول بتأثير الموسيقى على أجهزة الجسم ، وينصح بها فى حالات مرضية كثيرة • واذا علمنا ان التربية الحديثة تقول بأهمية الموسيقى فى تهذيب الاخلاق والنفوس •• أدركنا كم كانت آراء اخوان الصفاء قيمة فى هذا الموضوع •

التعليم

اذا علمنا ان مذهب اخوان الصفاء من المذاهب التعليمية ، أدركنا لماذا هم يكثرون من تعريف العلم وحث الناس على طلبه ، والاهتمام به اهتماما عظيما .

فالعلم غذاء للنفس وحياة لها . فاذا كان الطعام غذاء للجسد ، وكان المال قنية للجسد اذ يستطيع به الانسان الحصول على اللذات الدنيوية ، فان العلم قنية للنفس وبواسطته ينال الانسان الآخرة .. اذ بالعلم « تضيىء النفس وتشرق وتصح »(١) . يقولون « الآخرة » لان لهم رأيا فى ان مصير النفس الانسانية ـ من شقاء وسعادة ـ بعد مفارقتها الجسد يتوقف على مقدار ما أحرزته من علم . وان أى علم لا يعين طالبه الى الآخرة فهو وبال عليه (٢) . فليس هناك أوجب

---

(١) ج ١ : ١٩٨ ، ٢٧٣ ، ٣١٧ . ج ٣ : ٣٣ ، ٣٨ .

(٢) ج ١ : ٢٧٣ . للفارابى ـ فى مدينته الفاضلة ـ رأى قريب من هذا . كما ان بعض المعتزلة ، مثل ثمامة بن الاشرس ، يقول ان النفس التى لا تكتسب علما يفيدها لا تخلد . هذا بالاضافة الى ان بعض المتصوفة تقول وتعمل بذلك .

ولا أفضل للانسان من العلم وطلبه وتعليمه (١) .

ويرون ان لكل أمة نوعا من العلوم تبحث فيها وتتقنها ويبقى عندها لا ينقرض .

واذا كانت الاعمال والصناعات تتفاضل فان العلوم هى الاخرى تتفاضل ، وكذلك أهلها ، وافضلهم جميعا هم الراسخون العارفون باصوله . ولذلك لا يفخر هؤلاء الا بالعلم وحده .

واذا أراد الانسان أن يتعلم ، فليس كل علم يليق به ان يتعلمه ، اذ يجب عليه أن يختار العلم الذى يميل اليه ويرغب حقا فى دراسته . غير أن أولى العلوم بكل انسان أن يتعلمه « مالا يسعه جهله ، وواجب عليه طلبه » . ذلك ان هناك علوما لابد من دراستها ، لتجنب الجهل (٢) .

* * *

تعريف العلم :

العلم هو « صورة المعلوم فى نفس العالم » . وضده الجهل وهو انعدام تلك الصورة من النفس .

ان أنفس العلماء علاّمة بالفعل ، وأنفس المتعلمين علاّمة بالقوة ، و « ان التعلم والتعليم ليسا شيئا سوى اخراج ما فى القوة (يعنى الامكان) الى الفعل (يعنى الوجود) ، فاذا نسب ذلك الى العالم

---

(١) ج ١ : ٢٧١ .

(٢) ج ٣ : ٣٤ . ج ٤ : ٤٥ـ٤٦ . لافلاطون وأرسطو رأى قريب من هذا .

سمى تعليما ، وان نسب الى المتعلم سمى تعلما » (١) .

أى ان للنفس قوتين : أحداهما علاّمة والاخرى فعّالة ، وان صور الاشياء تكون بالقوة « فى نفس الانسان » ، فاذا تعلمها صارت بالفعل (٢) .

* * *

أنواع المعرفة :

يرى اخوان الصفاء :

ان قسما من المعلومات التى تعلم بأوائل العقول (البديهة) واضح للجميع (٣) . مثلا : الكل أكثر من الجزء .

وان قسما منها غامض يحتاج الى بعض التأمل . مثلا : ان الاشياء المختلفة اذا زيدت عليها أشياء متساوية كانت كلها مختلفة .

---

(١) ج ١ : ١٩٨ ، ٢١٠ـ٢١١ ، ٢٢٥ ، ٣١٧ . ج ٢ : ٧ .

(٢) تعريفهم للعلم أرسطوطالى .

(٣) اولا ـ قال أرسطو بالبديهيات وركزها على المنطق .

ثانيا ـ أكد ابن سينا أهمية هذه البديهيات كطريق أول للعلم .

ثالثا ـ ترى المعتزلة ، ولا سيما أبو الهذيل العلاف ، ان بعضا من البديهيات يدركها العقل بواسطة الحدس Intuition . وان العقل يستطيع الوصول الى المعانى الكلية (حتى يتكون العالم) . ان المعتزلة لا تقول بمعارف غريزية ، بل تقول ان المعارف الاساسية المرشدة للانسان هى فى متناول عقله الناضج . (راجع « فلسفة المعتزلة » ج ٢ : ٤٣ـ٤٥ . الدكتور البير نصرى نادر) .

رابعا ـ قال كثيرون من المفكرين والرياضيين بالبديهيات وأكدوا أهميتها .

وان قسما منها يحتاج الى تأمل كثير • مثلا : اذا كانت أربعة مقادير على نسبة واحدة ، فان فى الاول من أضعاف الثانى مثل ما فى الثالث من أضعاف الرابع •

ان هذه كلها بديهات ، ولكن نوع الفهم يتوقف من بديهة الى اخرى •

ان بعض المفكرين يعتقدون ان البديهات غريزية ، تعلقت بالجسم وتحتاج الى تذكّر ، ويسمون العلم تذكرا ، ويحتجون برأى افلاطون • « العلم تذكّر » • ويرد اخوان الصفاء على هؤلاء فيقولون : ان الامر ليس كما اعتقدوا • وان افلاطون أراد بقوله : العلم تذكر ، ان النفس بالقوة ، وتحتاج الى التعليم حتى تصبح علاّمة بالفعل ، فسمى العلم تذكرا • وهذه النظرية ــ أو هذه الفكرة ــ هى التى يأخذ بها اخوان الصفاء(١) •

* * *

والآن : ما هو مبلغ قوة الانسان فى ادراك المعلومات والمحسوسات ؟

ان معرفة الانسان بالحوادث الماضية وأخبار الزمان البعيد السحيق تكاد تكون من الصعوبة بمكان • هو لا يستطيع أن يعلم الا الحوادث القريبة الماضية ، كالمعرفة بالآباء والاجداد(٢) •

---

(١) ارجع الى تعريف العلم • راجع ج ١ : ٣٥١ــ٣٥٢ • ج ٣ : ٣٨ ، ٣٩٣ •

(٢) قولهم هذا يناقض قولا آخر لهم • راجع مثلا ج ٤ : ٤٢٧ــ٤٢٩ •

واذا استطاع ـ بواسطة التاريخ ـ أن يعلم تاريخ بنى اسرائيل ، أو حتى الطوفان ، أو حتى الى عهد آدم ، فهل بامكانه أن يعرف ما كان قبل عهد آدم (١) ؟!..

كذلك معرفة الانسان بالحوادث المستقبلة الآتيـة فى الزمان المستقبل ، فان معرفتها محال ، ولا يمكن له أن يستدل على حدوثها بسـهولة .

والانسان عجز عن تصور الـكون بكليته لانه هائل . وعجز ايضا عن ادراك الصورة المجردة عن الهيولى للطافتها وصفائها وشدة نفوذها فى الاشياء .

وغير هذا وذاك ، فهناك أشياء يعجز الانسان عن ادراكها لدقتها أو خفائها : كالجزء الذى لا يتجزأ ، أو الهيولى الاولى المجردة من الصور والكيفيات أو معرفة كيفية تصوير الجنين فى الرحم (٢) .

---

(١) وهذا أحد أسباب اختلاف الناس فى المعلومات والآراء .. (ج ٣ : ٣٨٤) .

(٢) يميلون بقولهم هذا الى أرسطو . ذلك انه يقول : اننا ، بواسطة التجريد والتعميم ، نستطيع أن نكون المعانى الكلية . وهذه المعانى الكلية لا نستطيع ادراكها الا اذا ركزناها على صور . وهذه الصور هى المحسوسات الجزئية .

ـ وقد قال بهذا من بعده (توما الاكوينى) .

ـ هذا الرأى يناقض رأى أفلاطون القائل باستطاعة النفس أن تتأمل المثل . وهذا ما قال به من بعده ـ أو مال اليه ـ أفلوطين ، والفارابى ، وابن سينا .

يستخلص اخوان الصفاء من كل هذا : ان قوة عقل الانسان متوسطة ، لا يقوى على تصور الاشياء الا ما كان وسطا بين الطرفين من الوضوح والخفاء(١) . وان حال الانسان ـ على وجه العموم ـ في العلم والجهل في الوسط ـ أيضا ـ ، فلا هو راسخ في العلم (كالملائكة) ، ولا هو جاهل (كالبهائم)(٢) .

* * *

وينتهي اخوان الصفاء الى أن علم الانسان بالاشياء يكون على نوعين :

(١) طبيعي غريزي : مثل ما يدرك بالحواس ، ومثل البديهات .

(٢) تعليمي مكتسب : مثل الرياضيات والآداب ، وما تأتي به الشرائع (٣) .

* * *

طرق التحصيل :

طرق تحصيل العلوم عند اخوان الصفاء هي : الحواس ، والعقل ، والبرهان .

يعلم الانسان المحسوسات والمبرهنات والمعقولات من الحواس . والسبب في ذلك أن كل ما لا تدركه الحواس لا تتخيله الاوهام ،

---

(١) ج ٣ : ٤١ـ٤٢ ، ٣٨٣ـ٣٨٤ .
(٢) ج ٣ : ٤٠ .
(٣) ج ٣ : ٣٨ .

وما لا تتخيله الاوهام لا تتصوره العقول .

واذا لم تكن هناك أشياء ، فلا يمكن البرهان عليها . اذ أن البرهان لا يكون الا من نتائج و(مقدمات) ضرورية بديهية .

والمعلومات التى فى أوائل العقول (البديهة) هى كليات : أنواع وأجناس ، ملتقطة من الجزئيات بطريق الحواس . فالطفل مثلا يعلم ان الكل أكثر من الجزء ، حين يقدر ان عشر كرات أكثر من خمس .

وعلى هذا القياس يمكن أن نطبق كل ما هو معقول ، لانه مأخوذ من الحواس .

ولذا فان من يحس بالاشياء أكثر من غيره ، ويتأملها جيدا ، ويعتبر المتخيلات ، فان الاشياء المعقولة عنده تكون أكثر تحققا .

نعود فنقول : ان الاشياء المعقولة ليست بشىء سوى صور المحسوسات (الجزئيات) التى نحصل عليها بحواسنا ، مجموعة فى فكر النفس (المسمى أنواعا وأجناسا)[1] .

فالحواس ، اذن ، لها الاهمية الاولى ، كطريق أول لتحصيل

---

(١) فكرة أرسطوطالية . ج١ : ٢١١ ، ٣٤٦-٣٤٩ . ج٢ . ٣٣٤ ، ٣٥١ . ج٣ : ٣٠ ، ٣٢-٣٥ ، ٣٩٣-٣٩٤ . يقولون أيضا ان الانسان مطبوع على استعمال القياس منذ الصغر ، وذلك بتأمله للاشياء وملاحظته للانسان ولحوادث التى تمر به ، ويقيس الاشياء والحوادث بالنسبة الى غيرها . ج١ : ٣٤٦-٣٤٧ .

العلم • ويزيد اخوان الصفاء : ان الناس متفاوتون فى القوى الحساسة الخمس بين الجودة والرداءة فى ادراكهم المعلومات ، وهذا سبب من أسباب اختلافهم ـ الناس ـ فى الآراء والمذاهب(١) • غير انهم يخرجون بنتيجة هى ان قوة حواس الانسان ـ بوجه العموم ـ على ادراك المحسوسات متوسطة • فحاسة البصر لا تقوى على ادراك الالوان فى الظلمة الظلماء ، ولا ادراكها فى النور الباهر ، كالنظر الى عين الشمس فى نصف النهار •• فى يوم صيف !• كذلك حاسة السمع ، لا تطيق استماع الصاعقة تماما لشدتها ، ولا تقوى الاستماع الى دبيب النحلة لخفتهـا • وهـكذا حواس الذوق ، والشـم ، واللمس (٢) • وهذا الرأى قيم •

ولهم رأى قيم آخر فى الحواس ، هى انها تحتاج فى ادراكها للمحسوسات الى شروط معينة لا تزيد ولا تنقص • ويذكرون مثلا القوة الباصرة (حاسة البصر) • فهى تحتاج فى ادراكها المبصرات الى ضوء ما ، والى بعد ما ، والى محاذاة ما ، والى وضع ما •• ومتى عدم شىء من ذلك عاقها ذلك عن « ادراك المبصرات بحقائقها » (٣) • ولا شك فى أن هذا ما تقول به التربية الحديثة ، وهذا ما يقول به

(١) ج ٣ : ٣٧٦ ، ٣٨٢ • أخـذ بهـذه الفـكرة حديثـا (وليم جيمس W. James وهو يغالى فيرى ان وظيفة الحواس هى فى اعداد جهاز الكائن للعمل والتصرف •• (انظر مثـلا كتاب « البراغماتزم » ، يعقوب فام ، القاهرة ١٩٣٦) •

(٢) ج٣ : ٤٠ ، ٣٧٦ ، ٣٨٠ •

(٣) ج٣ : ٣٨٠ •

علم النفس الحديث عند الحديث عن (العتبة) وتكوين الاحساس (أى ان المحسوسات تحتاج الى حد أدنى من التأثير على الحس) (١) . وهـذا ما يوصى به الـكثيرون فى التعليم ، وما تأخذ به الجامعـات والمدارس الراقية ، ولا سيما عند تعيين مكان للمدرس بحيث يستطيع أى طالب فى الصف أو القاعة أن يسمع المحاضرة بوضوح ؛ وكذلك عند وضع لوحة الكتابة (السبورة) فى مكان معين ، ووضع مناسب بحيث يستطيع الطلاب فى أى ركن من أركان قاعة الدرس مشاهدتها بوضوح تام .

* * *

ان اهتمـام اخوان الصفـاء الزائد بالحواس ، كطريق أول للحصول على العلوم ، سبقوا فيه الكثيرين من رجال التربية والتعليم وعلم النفس فى العصور الحديثة . فان العالم هنرى بستالوتزى قد بين وأسهب فى أهمية ادراك الحواس للمحسوسات وتأثيرهـا فى التربية ؛ وقال بنظريته فى العلامات المكانية ، الخاصة بادراك المكان باللمس والبصر (٢) . كما ان فيبر وفخنر (وهما من علماء النفس المحدثين المعروفين) أوضحا أهميـة الحواس والعلاقة بين المؤثر الخارجى والحس بطريقة الرسوم البيانية .

واذا كان العالم الالمانى جون فردريك هربارت (١١٧٦-١٨٤١)

---

(١) قال بذلك فيبر وفخنر . كما ان المعتزلة استطاعت أن تعرف (العتبة) وتتحدث باقتضاب عنها .

(٢) انظر تأريخ الفلسفة الحديثة - يوسـف كرم - ص ٣٧٥ .

قد قال : ان قوى النفس الانسانية تتحد وترتبط بعضها ببعض ارتباطا متينا (لكى تتناول صور المعلومات) • واذا كان عالما النفس هنرى بيرون (H. Pieron) الفرنسى ، وگلوتس (Glotz) الالمانى قد بحثا فى المناطق المخية •• فان فلاسفة الاسلام قالوا مثل هذا القول ، وشرحوه بشىء من الاسهاب ، ومنهم الفارابى ، وابن سينا ، واخوان الصفاء • فاخوان الصفاء يقولون : ان هناك قوى خمس « هن كالشركاء المتعاونات فى تناولها صور المعلومات بعضها من بعض • وهى : القوة المتخيلة (فى مقدم الدماغ) ، والقوة المفكرة (وسط الدماغ) ، والقوة الحافظة (مؤخر الدماغ) ، والقوة الناطقة ، والقوة الصناعية (الصانعة) » • فالقوة المتخيلة اذا تناولت رسوم المحسوسات من القوى الحاسة أدركتها وقبلتها فى ذاتها كما يقبل الشمع نقش الفص ، فتجمعها وتؤديها كلها ـ فى الحال ـ الى القوة المفكرة ، لتقوم بتمييز بعضها عن بعض ، ولتعرف الحق من الباطل ، والصواب من الخطأ ، والضار من النافع ، ثم تؤديها الى القوة الحافظة لتحفظها الى وقت الحاجة والذكرى • أما القوة الناطقة فتتناول تلك الصور المحفوظة وتعبر عنها • وأما القوة الصانعة فهى التى تصوغ وتعطى الصور الجميلة للاشياء ، ليبقى العلم ـ كما يقول اخوان الصفاء ـ مفيدا(١) •

★ ★ ★

---

(١) ج ٢ : ٣٥٠ـ٣٥١ • ج ٣ : ١٧ـ١٨ ، ٢٣٦ـ٢٤٠ •

التلميذ :

الدراسة ، فى نظر اخوان الصفاء ، تبدأ عندما يكمل الطفل السن الرابعة . ففى هذه السن يجب أن يسلم الى (المكتب) ليتعلم ما لم يكن يعلم من القراءة والكتابة والحساب والآداب ... الخ . وعليه فى هذه الفترة من الدراسة أن يتعلم كيف يكون السؤال وما جوابه ، حتى يعلم ما الذى يسأل وما الذى يجيب اذا سئل (١) .

أما لماذا حددوا السنة الرابعة بداية للتعلم ، فلكى لا تكون أفكاره « ملوثة » بالآراء الفاسدة والمعتقدات الرديئة . ذلك لان نفوس الاطفال فى مثل هذه السن صافية ، وقلوبهم واعية ، و« أفكار نفوسهم » كمثل ورق أبيض نقى لم يكتب فيه شىء ، فاذا كتب فيه شىء ـ حقا كان أم باطلا ـ فقد شغل المكان ومنع من أن يكتب فيه شىء آخر ويصعب حكه ومحوه (٢) . ولا يسرى هذا على الاطفال

---

(١) ج ١ : ١٩٨ . ج ٣ : ٥٣ ، ٣٢٥ . ج ٤ : ٤٨ـ٤٩ . يعير اخوان الصفاء هذه الطريقة أهمية كبيرة . وهم يحددون الاسئلة الفلسفية كما يأتى : هل هو ؟ ، ما هو ؟ ، كم هو ؟ ، كيف هو ؟ ، أى شىء هو ؟ ، أين هو ؟ ، متى هو ؟ ، لم هو ؟ ، من هو ؟ . (تجد شرحا مسهبا لهذه الاسئلة فى الجزء الاول ص ١٩٩ـ٢٠٢) .

(٢) ج٤ : ١١٤ـ٢٠٨ . يعتبر اخوان الصفاء أول من وضح هذا الرأى . أما فى الفلسفة الحديثة ، فقد قال نفس الكلام جون لوك فى كتابه :
(An Essay Concerning Human Understanding).
ـ وكان ليبنتز (غوتفريد فيلهلم) يتفق مع جون لوك ، غير =

فقط ، بل من الممكن تعليم الكبار ، ولكن ممن لم تتلوث أفكارهم بمعتقدات فاسدة « أى أن يكونوا سالمى الصدور » • وهم ينصحون المعلمين باختيار مثل هؤلاء •

وعندى ان لاخوان الصفاء غاية من ذلك كله • فماذا يهمهم اذا كان الطفل أو الراغب فى التعليم قد لوثت أفكاره بمعتقدات ، أو اعتنق آراء معينة ، ما دام هو يرغب فى التعلم ؟ انهم ـ ولا شك ـ يريدونه نقيا من كل رأى ، ليهيؤه لدراسة رسائلهم ، والتعرف على أهدافهم ، لكى يتأثر بهـا •

★ ★ ★

قلنا ان أنفس العلماء علامة بالفعل ، وأنفس المتعلمين علامة بالقوة • فنفوس الاطفال الذين يرغبون فى التعلم ، اذن ، علامة بالقوة ، ولذا فهى تحتاج الى نفس علامة بالفعل (أى الى المعلم) لتخرجها من القوة الى الفعل (أى الى العلم) •

والانسان السعيد هو من يكون له معلم رشيد ، ذكى ، صافى الذهن ، أخلاقه حسنة ، يحب العلم ، غير متعصب لرأى من الآراء • ومن واجب التلميذ أن يتقبل التأديب من معلمه(١) ، وأن يطيعه ،

= انه يرى ان المبادىء الضرورية والحقائق الكلية هى فى النفس • وهذا ما قال به اخوان الصفاء •

ـ وقال هربرت سبنسر قولا يشبه هذا القول كثيرا • راجع كتابه (First Principles).

(١) ج ١ : ٣٣٤ ، ٤٢٣ـ٤٢٤ • ج ٤ : ١١٤ •

ويحترمه ، ويقدره حق التقدير .

ويعطى اخوان الصفاء قيمة عظيمة للمعلم ، فهو عندهم بمثابة الاب ، الاب الروحى الذى يغذى النفس بالعلوم ويربيها بالمعارف(١) .

* * *

ان التلميذ ، بعد أن ينتهى من التعلم فى (المكتب) والمساجد ، اذا بقى محبا للعلم فعليه أن يستزيد من طلب العلوم(٢) ، ويجالس العلماء والحكماء ويتذاكر ويبحث . وعليه أن يبتعد عن أهل الجدل (السقيم) أو عن اولئك الذين يتشبهون بأهل العلم ويتدلسون بأهل الدين(٣) . وعليه الانصراف للعلم الذى يهواه ويرغب

---

(١) ج ٢ : ١٧ . ج ٤ : ١١٣ . أقوالهم هنا تتشابه مع أفكار اليونانيين القدماء .

(٢) يذكر اخوان الصفاء تلك العلوم ويشرحون أنواعها . (راجع مثلا : ج ١ : ٢٠٢-٢٠٩) . وهم هنا أبعد تفكيرا من أفلاطون (فى جمهوريته) . ذلك ان أفلاطون يحدد سنا معينة لمراحل الانسان وأعماله وتعلمه ، بينما اخوان الصفاء لم يحددوا سنا معينة بعد السن الرابعة ؛ وهم يتبعون النضوج العقلى . فمثلا : بعد أن يتم الطفل السن الرابعة يجب أن يدرس الكتابة والقراءة والآداب ... ثم تدرس المواد التالية كلما نما : الرياضيات ، العلوم ، الفقه ، طلب حقائق الموجودات .. وهكذا . (راجع مثلا ج ٣ : ٣٨٥) . وهذه الفكرة قال بها بعض مفكرى الاسلام ، ولا سيما من المعتزلة .

(٣) يكره اخوان الصفاء أصحاب الجدل (انظر مثلا ج ٢ : ١٠٨-١٠٩ ، ١١٠ ، ١٢٩ . ج ٣ : ٣٤ ، ٤٠٦-٤١٠ . ج ٤ : ٧١ ، =

فيه (١) ، فذلك أجدى وأحسن . واذا اجتهد فى العلم الذى انصرف اليه ، فعليه بعد ذلك أن يعتمد على نفسه فى طلب السبيل والبرهان (٢) .

* * *

والطالب الذى يرغب فى العلم ، حقا ، ويحب البحث فيه والتعمق ، يحتاج الى سبع خصال (٣) : السؤال والصمت ،

= ١١٣) . وقد يكون ذلك نتيجة لمبادئهم ، التى أرادوا تنبيه الاعضاء والمؤازرين بأنها لا تقبل النقاش والجدل .

ـ مما لاحظناه ، ويجدر ذكره هنا ، ان بعض أفكار اخوان الصفاء هنا شبيهة ببعض ما تأخذ به الاديرة المسيحية . فالمدرسة الاكليركية (Le Seminaire) تتخذ طريقا واضحا مع منتسبيها ، ولا سيما الاطفال ، اذ يجب تدريسهم اللغات والتاريخ والجغرافية .. الخ ، وملاحظة قابلياتهم ، فاذا ظهرت فيهم روح الجدل والمناقشة ينبهون على ذلك للابتعاد عن كل جدل ، ولا سيما فى المسائل الالهية . ـ ان (بندلى جوزى) يرى ان الكنائس ، أو الرهبنات المسيحية ، هى التى تأثرت باخوان الصفاء وبالاسماعيلية . (راجع كتابه « من تاريخ الحركات الفكرية فى الاسلام » ، ج ١) .

(١) قال ابن خلدون ايضا ـ بعد اخوان الصفاء ـ بالتخصص بعلم من العلوم ، ولكن بعد أن يتقن الشخص المبادىء العامة والضرورية للعلوم . كذلك قال بستالوتزى بهذا الرأى . وهذه هى الطريقة الحديثة والناجحة فى التربية .

(٢) ج ٤ : ١٢٧ .

(٣) ج ١ : ٢٧٢ .

الاستمتاع ، التفكر ، العمل بالعلم ، طلب الصدق من نفسه ، كثرة الذكر ان العلم من نعم الله ، ترك الاعجاب بما يحسنه • بالاضافة الى ذلك فان العلم يكسب صاحبه خصالا عديدة كالشرف ، والعز ، والغنى ، والنبل ، والمهابة ، والسلامة ••

★ ★ ★

المعلم :

لما كانت نفوس الاطفال والراغبين فى العلم علاّمة بالقوة ، فهى لذلك تحتاج الى من يخرجها الى الفعل ، وتلك هى نفوس المدرسين « المعلمين » • فان الانسان لابد له من معلم يقوم بتعليمه وتهذيبه (١) .

ومن الضرورى أن تتوفر فى المعلم صفات كثيرة حسنة ، كأن يكون حسن الخلق ، متواضعا ، وغير متعصب لرأى من الآراء (٢) .

واذا كانت للاساتذة والعلماء فضائل ومزايا كثيرة ، فلا يعنى هذا بأنه ليست لهم عيوب • ومن العيوب ، التى يريد اخوان الصفاء أن يبعدوها عنهم ، ما يأتى :

(١) الكبر والافتخار : ويدللون على ذلك بقول الرسول العربى « من ازداد علما ولم يزدد لله تواضعا ، وللجهال رحمة ، وللعلماء مودة لم يزدد من الله الا بعدا » •

ان كبر النفس دائما ليس بأمر محمود ، ولا يكون محمودا الا

---

(١) ج ١ : ٢٢٥ •

(٢) اذا أردنا أن نطبق هذا القول على جماعة اخوان الصفاء ، فمعناه ان المعلم عليه ألا يكون متعصبا لرأى من الآراء •• غير آرائهم !

اذا استعمل كما ينبغى ، وفى الوقت الذى ينبغى ، بمقدار ما ينبغى ، من أجل ما ينبغى (١) . ان كبر النفس قد يجر صاحبه الى الغرور والتمسك برأيه وأفكاره اذا كانت خاطئة ، وهذا ما لا يريده اخوان الصفاء .

(٢) كثرة الخلاف والنزاع فى العلم ، وطلب الرئاسة به ، والتعصب والعداوة والبغضاء بين العلماء .

(٣) الخوض فى مشكلات بعيدة عن العلم .

(٤) الرغبة فى الشهوات والملذات والسعى فى طلبها (٢) .

ويقدمون اليه ، ايضا ، نصائح عديدة ، لكى ينتفع منها أثناء تدريسه لشخص أو لاشخاص ، منها :

(١) التواضع لمن يتعلم منه . وتلك مزية كبرى يؤكدها اخوان الصفاء . وليس بالعيب على المعلم أن يقول : لا أدرى .

(٢) التعظيم له (أى الاهتمام بالتلميذ ، أو الشخص المتعلم) .

(٣) الرفق بمن يعلمه ، والشفقة عليه .

(٤) قلة الضجر من ابطاء فهم التلميذ وحفظه .

(٥) قلة المنة عليه بما يعلمه .

(٦) قلة الطمع فى أخذ العوض منه .

(٧) الصدق وتجنب الكذب .

---

(١) ج ١ : ٢٧٧ . الافتخار بالعلم وبالزهد والتصوف أمر محمود (ج ٣ : ٣٤) .

(٢) ج ١ : ٢٧٢ـ٢٧٧ . كنا قد بينا رأيهم فى ان العلم الذى لا يوصل صاحبه الى الآخرة فهو وبال عليه .

فالمهم ، اذن ، توكيد المودة بينه وبينهم (لتتفق كلمتهم) (١) .

واذا كان اهتمام اخوان الصفاء عظيما بالمعلم ، فذلك لان المعلم (بالنسبة اليهم) هو الذى يحمل رسالتهم (رسائلهم) ؛ ولذلك عليه أن يتصف بأحسن الصفات ، وأن يكون قدوة حسنة للآخرين .

ولعل من أهم النصائح التربوية التى يوجهها اخوان الصفاء هى طلبهم من المعلم أن يتدرج فى اعطاء المعلومات (٢) ، بحسب نمو الطالب وقدراته العقلية (٣) . وأن يراقب أعمال طلابه وتصرفاتهم ، وأن يعرف كل واحد منهم : ما اسمه وما اسم أبيه وما حاله ؛ وهذه طريقة صالحة للتدريس . فان الاستاذ اذا أبدى اهتماما ما بطالب ، فان هذا ـ الطالب ـ سيكثر من الدراسة فى درسه ويجتهد فيه ، ويحب استاذه . وبهذه الطريقة ايضا يكون الاستاذ قد انتفع كثيرا ، وحقق الغرض المطلوب من التعليم (٤) .

* * *

الفاحشة :

وقبل أن ننتهى من بحث التعليم ، يهمنا أن نقول ان لاخوان

---

(١) ج ١ : ٢٥١ـ٢٥٢ . ج ٤ : ١٨٦ .

(٢) ج ٣ : ٣٨٥ .

(٣) طالب ابن خلدون بأن يوزع منهج الدراسة بصورة صحيحة . وان علم النفس الحديث يقر هذا الرأى .

(٤) ج ٤ : ١٨٦ .

الصفاء رأيا غريبا ، تدفعنى الحقيقة والامانة العلمية الى تثبيته هنا (١) . وما أثبته يبدو غريبا ، لانه يبتعد ابتعادا كبيرا عن موضوع التعليم ، ولكنهم حشروه فيه .

ان اخوان الصفاء قالوا بالفاحشة ، أى الصلة الجنسية بين ذكرين ، وأعطوا لها بعض الاهمية !. قالوا بالنص : « .. ثم اعلم ، ان الاطفال والصبيان اذا استغنوا عن تربية الآباء والامهات ، فهم بعد محتاجون الى تعليم الاستاذين (الاساتذة) لهم العلوم والصنائع ليبلغوا بهم الى التمام والكمال ؛ فمن أجل هذا يوجد فى الرجال البالغين رغبة فى الصبيان ومحبة للغلمان ليكون ذلك داعيا لهم الى تأديبهم وتهذيبهم وتكميلهم للبلوغ الى الغايات المقصودة بهم . وهذا موجود فى جبلة أكثر الامم التى لها شغف فى تعلم العلم والصنائع والادب والرياضيات ، مثل أهل فارس وأهل العراق وأهل الشام والروم وغيرها من الامم .. » الخ (٢) .

وحتى اذا كان هناك أثر للفاحشة فى التاريخ القديم ، وكانت هناك صلة بينها وبين تعلم الشىء ـ كما كان ذلك موجودا حقا فى اليونان وفى سبارطة خصوصا (٣) ـ ، فهل هذا معناه أن يتأثر العرب

---

(١) نوه الدكتور عمر فروخ فى كتابه عن اخوان الصفاء عن هذا الموضوع .

(٢) ج ٣ : ٢٦٧ .

(٣) قولهم يعطينا دليلا على :

اولا ـ ان العرت ليسوا هم أول من استعمل (الفاحشة) ، =

بهذه الصلة ، ويأخذوا بها على انها حقيقة لابد منها فى التعليم ؟. واذا كان هناك بعض الفلاسفة والمفكرين قد تأثروا بهذه العادة ـ من قبل ـ فهل يعنى ذلك ان هذا العمل يجب أن يعمم ؟! (١) .والغريب فى الامر ان اخوان الصفاء يناقضون أنفسهم بقول آخر ، فهم يشبهون من يقوم بهذا العمل بالسنانير والحمير (٢) .

وكم كان الاحرى بهم ، وقد كان مذهبهم تعليميا ، أن يبتعدوا عن ذكر (الفاحشة) .

★ ★ ★

تعقيب :

هذه هى آراء اخوان الصفاء فى التعليم . وهى بلا شك آراء قيمة ، ممكن الاخذ بها ، ما عدا قولهم بالفاحشة طبعا . اننا نلاحظهم

= وهـذا ما كان يستغله البعض من الاجانب ، ليشوهوا سمعة العرب ، ويشوهوا الحقيقة عن التاريخ !

ثانيا ـ ان هناك أقواما اخرى قد سبقتهم الى هـذا العمل القبيح . وهم هنا يذكرون بعضها للدلالة .

ثالثا ـ ان (الفاحشة) كانت موجودة فعلا فى اليونان ، فى عهد سقراط وقبله .

(١) مثلا : سقراط . اذ أن كتب التاريخ تروى عنه انه كان يميل الى الصبيان والغلمان !

(٢) ج ٤ : ١٧٠ . ويناقض ايضا رأيا آخر (ج ١ : ٢٧٢ـ٢٧٧) .

فى هذا الموضوع يحددون شروطا ، ويضعون نقاطا (معينة) • ولابد لذلك من غاية •

قلنا فى الصفحات الفائتة ، ان مذهب اخوان الصفاء هو مذهب تعليمى ، وأقصد به ترغيب الناس فى التعلم ، والا يتعد أى واحد منهم عن طلب العلم ، لان ترك العلم من خواص المترفين ، اذ هم مشغولون دائما فى طلب الشهوات (١) • انهم يهدفون من وراء ذلك الى أن يتعلم الناس جميعا ، وألا يبقى منهم جاهل • والسبب فى ذلك ، كما أرى ، هو أن المثقف أو المتعلم أكثر فهما للظروف والاحوال التى تحيط به من غيره • واذا علمنا أن العصر الذى عاش فيه اخوان الصفاء كان عصر فوضى وانحلال فى السياسة والاخلاق (٢) ، أدركنا سر الدعوة التعليمية التى يريدها اخوان الصفاء • ذلك ان أيا من الناس اذا تعلم وتلفت حوله ورأى هذه

---

(١) ج ٤ : ١٢٥ •

(٢) هناك رسالة طويلة باسم (كيفية تكوين الحيوانات وأصنافها) ، ذات اسلوب سلس أخاذ رائع • كتبها (صاحبها) على لسان الحيوان ، وعلى شكل (محاكمة) مع أنواع (المرافعات) • أما لماذا كتبها باسلوب رمزى فلانها ، كما أرى ـ كانت صريحة للغاية ، وتبين فساد الطبقة الحاكمة ، وفساد المجتمع الموجود حينذاك والنقدات الشديدة له • (الرسائل ، ج ٢ : ١٥٢ـ٣١٧) •

ـ أشار دى‌بور الى هذه الرسالة دون أن يعلق شيئا • انظر كتابه : "The History of Philosophy in Islame" ص ٨٥ •

المفاسد ، فانه لن يغفر للمفسدين العابثين ذلك ؟ واذا لم يغفر فلا أقل من أن يكون متذمرا ساخطا • فيكون اخوان الصفاء بذلك قد أحرزوا جماعات جديدة من الانصار ، لا سيما وهم على رأس الساخطين المتذمرين من الوضع السياسى الذى كان قائما آنذاك ، ذلك الحكم الذى أرادوا ، كما يظهر لنا ، قلبه[1] •

وطريقتهم للتخلص من ذلك الحكم سلمية ، لا أثر فيها للثورة ، وكأنهم أرادوا بذلك أن ينتفع الجميع : يتعلم الناس ، وتتخلص البلاد من الحكم القائم ، ويصل اخوان الصفاء الى الحكم ••!

واذا كنا قد وجدنا شروطا قاسية يضعونها للمعلم أو الاستاذ الذى يقوم بالتعليم ، فذلك من حقهم ويدخل فى موضوع دعوتهم • فالمعلم بالنسبة اليهم عضو فعال ، بل يجب أن يكون كذلك ، اذ هو يحمل رسالتهم ويدعو لها •

واذا كانوا قد طالبوا المعلمين أو الاساتذة بألا يختاروا من الطلاب الا من ابتعد عن « الآراء الفاسدة والمعتقدات غير الصالحة » ، فهم يريدون ، فى الواقع ، بألا يكون الطلاب قد تشبعوا أو تلقنوا أى مبدأ أو أى رأى ـ مهما كان ـ ، لانهم يريدون أن يفسح الطريق

---

(١) كانوا يقولون ان الجهال يدق عليهم معرفة كيفية سياسة الملوك وتدبيرهم فى رعيتهم ، « وانما يعرف ذلك العقلاء والبالغون المتأملون للامور » • ج ١ : ٩٩ •

للمعلمين ليبثوا فيهم دعوتهم بهدوء واستمرار ، دون أن تعوقهم أو أن تقف أمامهم آراء أو معتقدات اخرى ألم بها الطلاب وتفهموها من قبل • وهم يتوسلون بكل الوسائل لكى يتأثر الطلاب والمتعلمون بأهدافهم ، لان من مبادئهم ألا يدخل فى جماعتهم أحد ما لم تتبين له صحة مذهبهم (١) • كما ان العضو عندهم يجب أن يكون (ثابت الرأى) ، ولذلك قالوا : « •• ان العقلاء مجبولون على أن لا يترك أحدهم دينا ومذهبا قد نشأ عليه وآنس به •• »(٢) •

ولا يهمنا هنا أن نتكلم عن تاريخهم السياسى ، فذلك ما يطول فيه الشرح ، وليس مجاله هنا (٣) • ولكننا أخذنا بنظر الاعتبار تاريخهم السياسى فى تعقيبنا هذا •

★ ★ ★

ويهمنا أن نقول انهم ، عند بحثهم فى العلم ، لم يغفلوا الصلة بين الايمان والعلم • فهم ، على نقيض الكثيرين غيرهم ، يفرقون بينهما ، ويرون ان الايمان يورث العلم لانه متقدم الوجود عليه (٤) •

كما انهم دعوا الى التعاون فى العلم ايضا ، ولا سيما فى المساعدات المالية • فقالوا ان من قد رزق المال والعلم معا ، فعليه أن يساعد الآخرين لاكمال تحصيلهم من العلم (٥) •

---

(١) ج ٤ : ٣٧ •
(٢) ج ٤ : ٣٧ •
(٣) راجع مقدمة الكتاب فى التاريخ •
(٤) راجع مثلا ج ٤ : ١٢٣ ، ١٢٦ •
(٥) ج ٤ : ١١٥ •

وهم يعطون أهمية كبرى للعقل • فالانسان له عقل ، وعليه أن يستغله وينتفع منه فى التعلم وفى تفهم الموجودات • ان العقل خير مناقب الانسان ، وان أفضل خصاله العلم • ولكل شىء خاصيته ، وخاصية العقل صحة التمييز ومعرفة الحقائق والسيرة العادلة وحسن الاختيار والحكم على الاشياء بصورة صحيحة (١) •

واذا علمنا أن اخوان الصفاء قد قالوا بهذا ، وان لهم آراء أخرى جد قيمة ، كطلبهم من الباحث الذى يريد أن يعرف حقائق الاشياء أن يكون له قلب فارغ من الهموم والغموم ونفس زكية طاهرة من الاخلاق الرديئة ، وصدر سليم من الاعتقادات الفاسدة « غير متعصب لمذهب أو على مذهب ، لان العصبية هى الهوى •• والهوى يعمى العقل وينهى عن ادراك الحقائق »(٢) • واذا علمنا أيضا انهم لا يعادون علما من العلوم ولا يهجرون كتابا من الكتب ، ولا يتعصبون على مذهب من المذاهب ، لان رأيهم ومذهبهم «يستغرق المذاهب كلها ، ويجمع العلوم جميعها »(٣) • اذا علمنا هذا كله ، أدركنا كم كان اهتمامهم عظيما بالعلم ، وكيف انهم قد وفقوا توفيقا كبيرا فى هذا المجال •

★ ★ ★

---

(١) ج ١ : ٣٠٦ ، ٣٤١ • أى ان وظيفة العقل لا تقتصر على التعليم ، بل على معرفة الاخلاق الحسنة ايضا • ــ قريب من قول المعتزلة (ولا سيما الجبائى) فى ان العقل بامكانه أن يدرك الحقائق الفائقة على الحس ، كما انه يدرك الحقائق الاخلاقية الاساسية •

(٢) ج ٣ : ٣٥٢ • ــ يقول (كنت) بذلك ايضا ، عند القول بالعقل النظرى والعقل العملى •

(٣) ج ٤ : ١٠٥ ، ٢١٦ •

الكتاب الثاني

الفلسفة الاخلاقية

آراء اخوان الصفاء فى الاخلاق ، كالاجتماع ، تجدها مبعثرة متفرقة فى رسائلهم • ولقد استطعنا جمعها وتقديمها بهـذا الشكل الذى تراه ، بعد أن رتبناها ووضعنا لها فصولا •

ان جل اهتمام اخوان الصفاء هو البحث فى السعادة ، وكيف انها تراد لنفسها لا لشىء آخر • وقد سخّروا الحكمة ، واعتمدوا على العلم ، فى سبيل تحقيق وتوفير السعادة للانسان • وهى نظرة مادية ، تقترب من الفكرة الاشتراكيـة اليوم • واذا كانوا قد قالوا بالسعادة الاخروية ، فما ذلك الا ستار لسعادة دنيوية لخير الانسان •

قالت دائرة المعارف الاسلامية : « ان أول أخلاقى العرب هو ابن المقفع ، وأهم الاخلاقيين بعده اخوان الصفاء •• » ، ذلك ان « تعاليمهم الخلقية صورة من طبيعة تفكيرهم •• » • وهذا اعتراف بأن اخوان الصفـاء من الاوائل ، بين مفكرى وفلاسفة الاسـلام ، الذين بحثوا فى الاخلاق وكونوا لهم آراء فلسفية خاصة •

ان الذى نراه فى هذه الفلسفـة هو الاقتراب من التصوف والزهد • وقد يكون ذلك نتيجة تأثرهم بفكرة (الفيض) لافلوطين وهنا لا بد أن نذكر تأثير الفلسفة اليونانية • فقد تأثر بهـا اخوان الصفاء عند بحثهم فى الاخلاق ، حتى لقد قال دى بور : ان الحكمة اليونانيـة قد أفلحت فـى أن تستوطن الشرق ، وذلك عن طريق اخوان الصفاء • ونحن لا ننكر بأن فلسفـة اخوان الصفاء تلفيقيـة (أى اقتباسية) Eclecticism ، فقد أخذوا من الفرس ومن قدماء الحكماء كما أخذوا من اليونان •

الفصل الأول

الاخلاق ، وأسباب اختلافها

ان مذهب اخوان الصفاء فى الاخلاق هو « السعادة » فى الدنيا والآخرة(١) فالسعادة خير شىء يناله الانسان ، وسعادة الدنيا لا تتم ان لم يكن لها هدف واضح ، وهو الآخرة • هذا المذهب يميل الى الروحانية والزهد والتصوف •

ان الانسان ما هو الا « النفس » • أما الجسد فليس له ـ بحد ذاته ـ أهمية أو قيمة تذكر ، بل عليه أن يمهد للنفس السعادة •• « ويجب أن تكون أسمى غاياتنا أن نعيش مع سقراط واقفين أنفسنا على العقل ـ ومع المسيح محتسبين اياها على قانون المحبة •• » • ولا يتم هذا الا بالعناية بالجسم والاصلاح من شأنه ، لتجد النفس ما ييسر لها الكمال • فالمحبة عندهم أسمى الفضائل •• المحبة التى غايتها الفناء فى الذات الالهية(٢) •

★ ★ ★

(١) راجع مثلا ج ١ : ٢٥٧ـ٢٥٨ • ان مذهبهم فى الاخلاق مقتبس من مختلف المذاهب القديمة ، وهم أنفسهم يقرون بهذا الاقتباس • (ج ٤ : ١٠٥) •

(٢) هذه فكرة صوفية • انظر الرسائل ج ٤ : ٩٢ • ج ١ : ٩٣ • ج ٤ : ٨٣ـ١٠٤ • وراجع : (تاريخ الفلسفة فى =

يميز اخوان الصفاء بين الانسان الكلى المطلق والانسان الجزئى • الانسان المطلق الكلى مطبوع على ـ قبول ـ جميع الاخلاق البشرية وجميع العلوم والاعمال الانسانية •• انه « النفس الكلية الانسانية » ، الموجودة فى كل زمان ، ومع كل أشخاص الناس (١) أما الانسان الجزئى فهو شخص من أشخاص الناس ، وهو موضوع حديثا الآن •

ان الناس مختلفون فيما بينهم فى الخلق • والاخلاق تختلف

= الاسلام) ، دى بور T. J. De Boer ، ترجمة عبدالهادى أبو ريدة ، ص ١١١ـ١١٢ •

ـ المحبة التى يقصدها الفلاسفة والمفكرون تختلف من واحد لآخر •

ـ فقد أراد سان سيمون (١٧٦٠ـ١٨٢٥) اقامة أخلاق ، بل مسيحية جديدة قائمة على محبة الانسانية ، واعتبار الحياة الارضية غاية لذاتها لا وسيلة لحياة مقبلة غير منظورة •

ـ ويرى دافيد هيوم D. Hume ان أساس الاخلاق التعاطف (أو عاطفة الانسانية) ، التى تحملنا على محبة الخير للناس جميعا •

ـ ويرى برغسن (عند قوله بالاخلاق المتحركة المفتوحة ، وبفكرة البطل) ، ان محبة الانسانية قاطبة ، بل الخلقية بأسرها ، تظهر فى بعض الافراد الممتازين الذين يسمعون فى أنفسهم نداء الحياة الصاعدة ، فيتملكهم انفعال ، هو انفعال خالص غير ذى موضوع فائق لمستوى العقل •• (انظر : تاريخ الفلسفة الحديثة ـ يوسف كرم) •

(١) ج ١ : ٢٣٥ـ٢٣٦ • ج ٤ : ١٠٧ـ١٠٨ ـ يقتربون هنا من افلوطين •

فيما بينها ، ما بين محمودة ومذمومة . والاخلاق الرديئة تنتج الى حد كبير من العادات الرديئة ، وينطبق هذا على الاخلاق المحمودة ، فان العادات المحمودة تقوى الاخلاق وتؤثر فيها . ويجرى هذا الحكم على الآراء والمعتقدات أيضا . فهم يحكمون على ان هذه الآراء والمعتقدات نسبية ، تتبع الاديان والمذاهب . فان من الناس من يحرم أشياء قد يحللها غيره ، ومنهم من يرى انه حلال له سفك دم كل مخالف له فى المذهب (ويذكرون مثلا لذلك اليهود والخوارج) .

* * *

أسباب اختلاف الاخلاق :

يذكر اخوان الصفاء عدة علل وأسباب ـ غير ماذكرنا ـ ، بها ومن أجلها تختلف أخلاق الناس .

(١) أخلاط الاجساد « ومزاج تلك الاخلاط » : ان العناصر الاربعة (الرطوبة واليبوسة والبرودة والحرارة) لها تأثير كبير فى أخلاق الانسان فى غالب الاحيان .

فالمحرور الطباع يمتاز بأنه سخى ، ذكى النفس ، شجاع متهور فى الامور الصعبة ، قليل الثبات والتأنى فى الامور ، شديد الغضب ولكنه قليل الحقد .

أما المبرود الطباع فيكون ـ على الاكثر ـ غليظ الطباع ، ثقيل الروح ، غير مكتمل الذهن والخلق .

وأما المرطوب فيكون لين الجانب ، قليل الثبات ، سريع النسيان ، سهل القبول ، طيب الخلق ، سمح النفس .

وأما اليابس المزاج فيكون ثابت الرأى ، عسر القبول ، ويغلب عليه الصبر والحقد والبخل والامساك والحفظ ..

(٢) طبيعة البلدان : ان ترب البلدان تختلف ، كما ان أهويتها تتغير من جهات عدة ، وهذه بدورها تؤدى الى اختلاف أمزجة الاخلاط ، واختلاف أمزجة الاخلاط ـ بدوره ـ يؤدى الى اختلاف اخلاق أهلها وطباعهم وألوانهم ولغتهم وعاداتهم وآرائهم وأعمالهم وصناعاتهم وسياساتهم (١) .

فالذى يولد فى بلاد حارة ، ويترعرع فيها ، وينشأ على هوائها ، يغلب على باطن أمزجة بدنه البرودة . ذلك ان مزاج من يسكن البلاد الجنوبية ، والغالب على أهوية بلاده الحرارة ، « بمرور الشمس على سمت بلاده فى السنة مرتين » تكون فيها الاهوية ساخنة ، ويحمى الجو ، فيؤدى هذا الى ان تحترق ظواهر بدنه ، فيتجعد شعره ، ويسود جلده ، وتبيض أسنانه ، وتتسع عيناه وفمه وأنفه .

والذى يولد فى بلاد باردة ، ويتربى هناك ، فان الغالب على باطن أمزجة بدنه الحرارة . ذلك أن الشمس تبتعد عن سمت بلاده ، ولا تمر عليها .. لا صيفا ولا شتاء ، فيؤدى ذلك الى برودة الجو ، فيبيض ـ لذلك ـ جلده ويترطب بدنه ، وتحمر عظامه ، وتضيق عيناه . ويمتاز بالشجاعة والفروسية .

---

(١) يقول ابن خلدون بهذه الفكرة (مقدمته ص ٨٢ـ٨٧) . ارجع ايضا الى كتاب :
(R. Linton : The Study of man, London, 1936)

(٣) ديانات الآباء والاجداد تؤثر فى سلوك الانسان وتصرفاته. وتختلف أخلاق الانسان أيضا بحسب تربية آبائه ومعلميه واستاذيه (اساتذته) ، ومربيه ومؤدبيه .

(٤) أحكام النجوم : ويعطون لها أهمية كبرى . ويعتقدون ان هذه الاحكام هى الاصل ، وما تبقى من الاسباب ففروع لها[١] .

---

(١) ج ١ : ٢٢٩-٢٣٤ . ج ٢ : ٣٢٠-٣٢١ . ج ٣ : ٢٠٥ . ان هذه العلل والاسباب التى تؤدى الى اختلاف أخلاق الناس وطباعهم ، كانت شائعة عند الاقدمين . فالفيثاغوريون قالوا بها . (راجع ايضا كتاب « الاهوية والمياه والاماكن » لـ Epicurus) . وأرسطو أكد هذه الفكرة وبين أهميتها . وقال بها من فلاسفة الاسلام كثيرون ، وفى مقدمتهم الكندى (راجع موضوع أثر البيئة فى المجتمع فى صدر هذا الكتاب) . وشرح وعلق عليها ابن خلدون (فى مقدمته) . وفى العصور الحديثة كتب بوكل (Henry Thomas Buckle) كتابه (Civilization in England) لتوضيح أهمية البيئة وأثرها فى المجتمع والاخلاق . وتأثر بها هربرت سبنسر H. Spencer . وقال بها أحد تلاميذ هربرت سبنسر وهو كرانت ألن (Grant Allen) . (اذا أردت زيادة فى الايضاح ، راجع كتاب « دراسات فى علم الاجتماع » ـ عبدالفتاح ابراهيم) . ارجع الى فصل المجتمع من هذا الكتاب .

الفصل الثانى

الاخلاق الغريزية والمكتسبة

الاخلاق على نوعين : النوع الاول تكون مطبوعة فى جبلة النفوس ، مركوزة فيها (غريزية) • والنوع الثانى تكون مكتسبة معتادة (بسبب العادة) • ولكل من هذه الاخلاق اصول وقوانين ، ولها فروع (١) •

الاخلاق المركوزة :

ان هذه الاخلاق تنطبع فى جبلة الانسان وهو جنين • هذه الاخلاق يعرفونها بأنها : تهيؤ ما فى كل عضو من أعضاء الجسد « يسهل به على النفس اظهار فعل من الافعال أو عمل أو تعلم علم أو أدب » (٢) • فالانسان الذى طبع على الشجاعة ، لا يجد صعوبة فى الاقدام على مخاطرة ما تصادفه • وكذلك الذى طبع على السخاء ، فانه يسهل عليه بذل العطاء بسهولة (٣) •

---

(١) يميز عمانوئيل كنت (I. Kant) بين الافكار القبلية (Apriori) والافكار المكتسبة ، ويبنى الاخلاق على الافكار القبلية قبل أى تجربة خارجية أو داخلية • وقد قال بذلك اخوان الصفاء أيضا • كما أن شوبنهاور تساءل عن هذه الافكار (المجردة) ، ورد على (كنت) •

(٢ ، ٣) ج ١ : ٢٣٤ ـ ٢٣٥ • يرى بعض الباحثين فى علم النفس الحديث ان هناك نوعا من التفضيل والتقدير لمن تكون عنده قابلية أو مقدرة يستطيع الانتفاع بها ـ دون اكتساب ـ ، اذ هو يختلف عن الشخص السوى •

ويرجع اخوان الصفاء الاخلاق المركوزة والقوى وما يتبعها من شهوات الى النفس النباتية (الشهوانية) والنفس الحيوانية (الغضبية) والنفس الانسانية (الناطقة)[1] . ان ما ينسب الى النفس النباتية (الشهوانية) شهوة الغذاء « أى النزوع والشوق نحو المأكل والمشرب والرغبة فيهما » . وأما ما ينسب الى النفس الحيوانية (الغضبية) فشهوة الجماع ، من أجل التناسل ، « أى من أجل بقاء الصورة فى الاشخاص المتواترة » ، وشهوة الانتقام « من أجل دفع الضير » ، وشهوة الرئاسة « أى صلاح الموجودات وبقاؤها على أحسن حال »[2] . وأما ما ينسب الى النفس الناطقة ـ فزيادة على ما تقدم ـ شهوة العلوم والعز والرفعة والحرص فى طلبها واحتمال المشقة من أجلها . وعلى هذا فان الشهوات تدعو النفوس الثلاث إلى طلب المنفعة ودفع المضرة (وقد ساعدتها الطبيعة على تقبل مثل هذه الشهوات)[3] .

هذه النفوس يعرض لها بين حين وآخر أمراض تخرجها عن الاعتدال . وللتخلص منها على الانسان ان يتخلص من ربقة المادة ، ويتجنب المحارم ، ويتخلق بالاخلاق الفاضلة[4] .

---

(١) ظن كثير من المتتبعين للعلم والفلسفة ان للانسان ثلاث نفوس : شهوانية ، غضبية ، ناطقة . غير انها فى الحقيقة نفس واحدة . (راجع الرسائل ج ٣ : ٨٢ ـ ٨٣) . وهذا التقسيم افلاطونى . ومعظم فلاسفة الإسلام أخذوا بهذا التقسيم .

(٢) هذا هو تعريفهم للسياسة .

(٣) ج ١ : ٢٤٠ ـ ٢٤٣ ، ٢٤٦ . ج ٢ : ٣٢٢ ـ ٣٢٣ .

(٤) ج ٢ : ١٩ . ج ٣ : ٣٠ـ٣١ .

وينتهى اخوان الصفاء الى أن شهوة البقاء[1] ، وكراهية الفناء هما أصل وقانون لجميع تلك الشهوات (الغريزية) • وان تلك الشهوات أصول وقوانين لجميع أخلاقها • وتلك الاخلاق اصول وقوانين لجميع أفعالها • ويفسرون كيف صارت شهوة البقاء وكراهية الفناء مركوزتين (غريزيتين) بقولهم : « لما كان الله علة الموجودات وسبب الكائنات ومبدعها وموجدها ، ومبقيها ومتممها ، ومبلغها الى أقصى مدى غاياتها وأفضل حالاتها ، وكان الله دائم البقاء ، لا يعرض له شيء من الفناء ، كان هذا سببا للموجودات الى محبة البقاء وشهوته ، وكراهية الفناء وبغضه ، لان فى جبلة المعلول يوجد بعض صفات العلة دلالة دائمة عليها »[2] •

ويرون أن أكثر الشرور التى تجرى بين الناس مصدرها شدة الرغبة فى الدنيا والحرص على طلب شهواتها ولذاتها وتمنى الخلود فيها[3] •

* * *

قال اخوان الصفاء ان أصل الخلق خير كله ، جود كله ،

---

(١) يرى هوبز ان سيرة الانسان قائمة كلها على غريزة حب البقاء • ويراها ، بالاضافة الى الحياة الانسانية ، (كالحركة ، بالاضافة الى الطبيعة) • راجع تأريخ الفلسفة الحديثة ـ للاستاذ يوسف كرم ـ ص ٥٤ •

(٢) ج ١ : ٢٤٤ ، ٢٤٥ • ج ٣ : ٧٢ ، ٢٧٠ •

(٣) ج ١ : ٢٧٩ •

لا تفاوت فى خلق الله النورانى وفيضه الروحانى (١) . وهذا يخالف قولهم فى أن الاخلاق ركزتها الطبيعة دون روية ولا اجتهاد ، وان الانسان يعمل كالبهائم فى طلب منافع جسده ودفع المضرة عنه (٢) . ويناقض قولهم فى ان الانسان ورد الى الدنيا جاهلا غير مستعد لها (٣) ولا يأتلف مع قولهم الصريح فى أن أوامر الشريعة (من صيام وصلاة وتعفف وحلم وصبر وزهد فى الدنيا ..) هى بخلاف ما فى طباع الناس (٤) .

لم يوضح اخوان الصفاء ، اذن ، وكان يجب أن يوضحوا ، ان الانسان جاء الى الارض طيبا صالحا فاضلا مستعدا ، باعتباره من خلق الله النورانى وفيضه الروحانى . أما قولهم بأن الانسان ورد الى الدنيا جاهلا غير مستعد لها ، وأن أخلاقه غريزية ـ ولا سيما تلك الشهوات ـ جاءته من غير كسب ولا اجتهاد ولا روية ، فهو يقف مانعا دون القول بأن المادة (الهيولى) هى سبب هذا التبدل فى الاخلاق . اذا كان اخوان الصفاء قد قالوا ان الانسان « هكذا » جاء الى الارض ، وقبل أن يتأثر بالمادة ، فكيف سيكون موقفه اذن وهو يصطدم بالمادة فى كل آن ؟ مع العلم انهم يقولون ان الاخلاق الرديئة والاعتقادات الفاسدة هى أساس الشرور فى العالم ، وان

---

(١) ج ٤ : ٣٧٢ .
(٢) ج ١ : ٢٥٨ ـ ٢٥٩ .
(٣) ج ١ : ٢٦٠ .
(٤) ج ١ : ٢٥٩ .

أصل الشرور هو المادة (الهيولى) ، لان الهيولى جوهر منفعل ناقص القبول للفضائل • (راجع فصل الخير) •

★ ★ ★

الاخلاق المكتسبة :

عندما يخرج الانسان الى الحياة ، يكتسب صفات وعادات كثيرة ، اضافة الى ما انطبع فى جبلته وهو جنين • هذه العادات والصفات معرضة الى الزيادة والنقصان • هذه الاخلاق يعرفونها بأنها : تلك الخصال والافعال التى يحتاج الانسان لاظهارها وابرازها الى فكر وروية ، واجتهاد شديد ، وكلفة • وان الانسان « لا يفعل هذه الامور الا بعد أمر ونهى ، ووعد ووعيد ، ومدح وذم ، وترغيب وترهيب » (١) •

فالاخلاق المكتسبة ليست كالمركوزة (الغريزية) ، اذ انها مختلفة متقلبة ، نتيجة البيئة التى يعيش فيها الانسان ، والعادات التى ينشأ عليها ، والآراء التى يعتقدها ، والخصال التى يحصل عليها من معلميه وأساتذته ومن حوله من الناس • أما الغريزية فمستقرة ثابتة (٢) •

واذا كانت البيئة متقلبة ، فيعنى هذا ان الانسان كثير التلون ، قليل الثبات على حال واحد • ذلك ان قل من الناس من تحدث له حال من أحوال الدنيا من غنى الى فقر ، أو من ذل الى عز ، أو من

---

(١) ج ١ : ٢٣٥

(٢) ج ١ : ٢٢٩ • ج ٣ : ٣٩٥ • ج ٤ : ١٠٩ •

بؤس الى رفعة ، أو من رأى الى رأى ، أو من صحة الى مرض ، أو من شباب الى شيخوخة .. ولا يحدث له خلق جديد وسجية جديدة (١) .

* * *

ان الانسان اذا تطبع ونشأ على عادات وخصال معينة ، فليس من السهولة أن يتركها ، أو يبتعد عنها ، ذلك ان « العادة توأم الطبيعة » (٢) .

ولكن اذا كانت تلك العادات سيئة للغاية ، وكان من واجبنا أن نصلحها ، ونعدل من أخلاق صاحبها ، فما هو الطريق الذى يجب أن نتخذه ؟

يرى اخوان الصفاء ان مما تكسر به الاخلاق الرديئة والافعال القبيحة والعادات السيئة ، أن تقاوم بأضدادها من الافعال الجيدة ، كمن يقهر الحدة بالحلم ، والعجلة بالاناة ، والشهوة بالعفة (٣) . ويقولون بطريقة اخرى ، هى ان النفس الناطقة اذا استعانت بالنفس الغضبية فانها تستطيع ان تقهر النفس الشهوانية « وهى سبب الاعمال القبيحة » وتقمعها حتى تنقاد لها وتذللها وتقيمها على الاعتدال فى سائر أحوالها . وأهمية النفس الناطقة كبيرة ، لان لها من الصفات

---

(١) ج ٤ : ١١١ .

(٢) ج ٣ : ٣٩٥ .

(٣) هذه طريقة نفسانية ، تقول بها التربية وعلم النفس الحديث فى تهذيب الخاطئين والمجرمين .

الحسنة والاخلاق الطيبة الحميدة ما يمنع قبولها لاى أخلاق اخرى تناقضهـــا (١) .

* * *

هذه هى النقاط الرئيسة لافكار اخوان الصفاء فى الاخلاق الغريزية والمكتسبة . وقد يخرج البعض من هذه الدراسة بنتيجة : هى ان اخوان الصفاء ، فى أقوالهم عن الآراء الفاسـدة والاخلاق السيئة والشهوات الرديئة ، أرادوا بها انها غريزية فقط . نعم ، ان ذلك قد يبدو للمتتبع فى أحايين كثيرة ، لا سيما عندما يصف اخوان الصفاء الانسان فى دنياه على انه يسعى فيها ويعمل على الارض كما تعمـل البهائم ، ويرددون قـول الله فى القرآن « يأكلون كما تأكل الانعام والنار مثوى لهم » وعندما يقولون أن أخلاق هؤلاء وسجاياهم غريزية فى النفس . غير انهم ـ فى الواقع ـ يقررون أيضا ان سوء الخلق ، وحب الشـهوات ، والسـيرة الجائرة هى ليست غريزية فحسب بل وبعضها عادة تكتسب . كذلك فى حسن الخلق ، ونبذ الشهوات هى ليست كلها مكتسبة ، بل بعضها غريزى(٢) .

---

(١) ج ٤ : ٣٤٢ . كذلك ج ١ : ٢٣١ ـ ٢٣٢ ، ٢٤٣ .

(٢) ج ١ : ٢٥٨ ـ ٢٦٠ . ج ٤ : ٦٧ .

الفصل الثالث

الخير

هناك خمس خصال (مكتسبة) : العلوم والمعارف ، الاخلاق والسجايا ، الآراء والاعتقادات ، الكلام والاقاويل ، الاعمال والحركات • هذه الخصال قد تسمى خيرات وقد تسمى شرورا ، وذلك من وجهين : اما وضعية ، واما عقلية •

فالوضعية : كل شيء أمر به الله ، أو حث عليه ، أو مدحه بكتبه المنزلة (وهذا خير) ، وما نهى أو زجر عنه (وذاك شر) •

أما العقلية : فكل شيء اذا فعل منه ما ينبغى ، على الشرائط التى تنبغى ، وفى المكان الذى سينبغى ، فى الوقت الذى ينبغى ، من أجل ما ينبغى ، سمى خيرا • أما اذا نقص شرط من هذه الشروط فان ذلك يسمى شرا • ان الشرائط ـ المذكورة ـ ليست فى وسع كل انسان ، بل بعد أن تتهذب نفسه وتترقى فى الآداب والعلوم[1] •

ولذا فالعقلاء لهم عقول يعرفون بها القبيح فينزجرون عنه ،

---

(١) ج ٤ : ١٨ •

ويعرفون الجميل فيأمرون به (١) .

هم يريدون الوجود أن يكون على الحال الافضل ، اذ هو ألذ وأشرف وأفضل من الوجود على النقص (٢) . والوجود على النقص سببه الشرور ، والشر عارض فى العالم ، سببه الهيولى . هذه الهيولى جوهر منفعل ناقص القبول للفضائل (٣) .

ان الانسان حر فيما يعمله ، ذلك لانه خلق مستطيعا لعمل الخير . وهو بتلك الاستطاعة ـ عينها ـ يقدر أن يعمل الشر أيضا (٤) .

★ ★ ★

فعل الخير للخير :

اذا كانت الفلسفة الحديثة قد جاءت بأفكار فلسفية أخلاقية كثيرة جديدة ، أو هكذا نظن ، فان الدراسات الكثيرة فى الفلسفة اليونانية والفلسفة الاسلامية أثبتت أن بعض تلك الافكار قال بها الفلاسفة المسلمون وفلاسفة اليونان .

ففى موضوعنا عن الخير ، قال كنت (٥) : « ان الخير يجب ان

---

(١) ج ٤ : ١٨٩ .

(٢) ج ١ : ٢٤٥ .

(٣) ج ٤ : ١٠ .

(٤) ج ٣ : ٤٢١ـ٤٢٢ . قالت المعتزلة بحرية الاختيار عند الانسان ، وانه مختار لافعاله ، وحر فى اتخاذ طريق الخير أو الشر . وقد توسعت المعتزلة فى شرح هذه الحرية وأهميتها للانسان .

(٥) عمانوئيل كنت (I. Kant) فيلسوف ألمانى (١٧٢٤ـ١٨٠٤) .

يعمل لذاته ، ولن يكون خيرا الا اذا كان الباعث عليه نيّة خيّرة»[1] أى دون منّة أو ما أشبه ذلك ..

وليس هذا القول جديدا فى الفلسفة ، فان اخوان الصفاء قالو به قبل (كنت) بقرون طويلة . قالوا : « .. ان كل شيء يراد فهو من أجل الخير ، والخير يراد من أجل ذاته .. »[2] . وقالوا أيضا : « وسبيلك أن تعود نفسك عمل الخير لانه خير ، لا تريد بفعلك عوضا ، ولا يحملك على فعله خوف . فمتى فعلت لطلب المكافأة لم يكن خيرا ، وان لم تطلب المكافأة وانما أردت الذكر والاسم كنت أيضا منافقا ولم يكن خيرا .. »[3] .

واذا كان (كنت) أيضا قد قال : « ان الخير المحض هو السعادة »[4] ، « والخير المحض هو ما يجب أن نسعى من أجله سواء حصلنا على لذة منه أو ألم .. »[5] . فان اخوان الصفاء قالوا بهذا أيضا قبله : « ان كل شيء يراد فهو من أجل الخير ، والخير

---

(١) انظر مثلا كتاب هنرى سدجويك فى تاريخ الاخلاق
History of Ethics. By Henry Sidgwick. P. 262.

(٢) ج ١ : ٢٤٥ـ٢٤٦ .

(٣) ج ٤ : ٢٩٨ .

(٤) قال كذلك ان الفضيلة خير بذاتها ، والسعادة متوقفة عليها . واخوان الصفاء يقولون بذلك .

(٥) انظر : H. Sidgwick : History of Ethics. P. 260. . راجع : اخوان الصفاء للاستاذ عمر الدسوقى .

يراد من أجل ذاته ، والخير المحض السعادة ، والسعادة تراد لنفسها لا لشيء آخر .. »[1] .

ان الذى وقفنا عنده متسائلين هو هذا الشبه الكبير فى النصوص. وبالرغم من تشابه النصوص فان اخوان الصفاء لم يقولوا برأيهم ذاك الا بسطور قليلة . أما (كنت) فقد أسهب فيه وشرحه ، لا سيما وهو يبنى فلسفته الاخلاقية على العقل .

ولا نستطيع أن نقول ان (كنت) أخذ هذا الرأى من اخوان الصفاء لسببين :

(١) ليست عندنا اثباتات كافية ، وأدلة قانعة ، بالرغم مما بيناه ، وبالرغم من تشابه النصوص الى حد كبير .

(٢) ان بعض الفلاسفة ، ممن سبقوا اخوان الصفاء ، قالوا بمثل هذا الرأى . خذ مثلا أفلاطون عند كلامه عن مثال الخير ومثال الجمال ، وكيف ان الانسان يعشق الخير لذاته (محاورة فيدروس ، ومحاورة المأدبة) .

ويجدر بنا أن نذكر أن (رابعة العدوية) ترى ان فعل الخير يجب ألا يكون خوفا من نار أو حبا فى جنة قادمة ، فهى تبعد الجنة والنار ، وتحب الله (الخير المحض) حبا الهيا منزها عن كل غرض أو فائدة .. « ما عبدت الله خوفا من ناره ، ولا حبا لجنته ـ فأكون كالاجير السوء ـ .. وانما عبدته حبا له وشوقا اليه » . كذلك كان (الحلاج) حين قال بالاندماج بالله ..

هذا وقد قال بفكرة الخير لذاته فيما بعد الفارابى وابن سينا .

---

(١) ج ١ : ٢٤٥ـ٢٤٦ .

الفضيلة

الفضيلة ، بوجه عام ، هى فعل شىء باختيار الانسان وارادته وفكره ورويته ، على ما ينبغى ، من أجل ما ينبغى ، بمقدار ما ينبغى. هذا الفعل محمود ، ويكون صاحبه حكيما فيلسوفا فاضلا . والفعل الذى يتم بخلاف ذلك هو عمل مذموم ، وصاحبه يكون جاهلا رذلا (١) .

وليس كل العلماء والمتفلسفين الذين يصنفون الكتب ، ومنها فى تحسين الاخلاق (التى يأمرون الناس بها) ، مهذبين ! . بل انا لنجد أقواما ليس لهم علم كثير وهم مهذبون .

ويرون أن « حسن الخلق من مواهب الله والملائكة وشيمة أهل الجنة .. » (٢) . وعلى هذا فالفضائل والخيرات كلها « هى من فيض الله واشراق نوره على العقل الكلى ، ومن العقل الكلى على

---

(١) ج ١ : ٢٤٧ .

(٢) ج ٤ : ١١٨ـ١١٩ .

النفس الكلية ، ومن النفس الكلية على الهيولى .. »[1] وعلى هذا ، أيضا ، فان من يريد أن يكون فاضلا حقا ، عليه أن يتخلص من الجسد الكثيف الغليظ ، وأن يبتعد عن المادة ويبخس قدرها ، ويرتفع عن عالم المادة الى عالم المعقولات ، ويسمو .. حتى يصل الى النفس الكلية .. الطريق الأول للفضيلة الانسانية[2] .

* * *

ومذهب اخوان الصفاء فى الفضيلة هو مذهب أرسطو ، أى اختيار الوسط العدل بين افراط وتفريط كلاهما رذيلة . هذا الوسط يطلق عليه اخوان الصفاء « العدل بين حاستى جور » . فالعزم ، مثلا ، هو عدل بين التهور والجبن . والجود هو عدل بين تقتير وتبذير . وعلى هذا النحو الشجاعة واللب والعلم .. الخ .

ويرى اخوان الصفاء ان العدل (الوسط) هو ما لم يمل الى الالحاح ولا الى الابتهال والخضوع . فالحزم يكون عدلا اذا لم يمل الى احدى حاشيته : الفشل والتهور . ولذا فالعدل يجب أن يصدر

(١ ، ٢) ج ٣ : ٢٧٥ . لا شك فى انهم بكلامهم هذا تأثروا بأفلوطين . وهم أيضا يقولون ـ كأفلوطين ـ بالفيض عند الكلام عن خلق العالم .

ـ أخذ هذا الرأى الفارابى وابن سينا .

ـ وللفيلسوف الالمانى (كنت) رأى قريب من هذا . ذلك ان الانسان ، كما يرى ، « يستطيع أن يترقى الى غير نهاية نحو القداسة بأضعاف ميوله الحسية اضعافا مطردا » . (راجع : تاريخ الفلسفة اليونانية ـ يوسف كرم) .

عن فكر وروية[1] . وهذا يشبه ما قاله (أرسطو) من أن « الفضيلة لا تكون فضيلة بمعنى الكلمة الا اذا صدر الحكم فيها عن عقل صاحبها واتبعته ارادته »[2] . واذا كان (كنت) يرى ان الفضيلة هى سيطرة الارادة على الطبيعة ، وسقراط يرى انها نتاج العلم[3] . فان اخوان الصفاء يرون الرأيين .

★ ★ ★

ويجدر بنا أن نذكر أن هناك رأيا لاخوان الصفاء فى أن الفضيلة والخير هما أمران نسبيان ، يختلفان باختلاف النفوس

---

(١) ج ٣ : ١٣٠ـ١٣١ .

(٢) يوسف كرم : تاريخ الفلسفة اليونانية ـ ص ١٩١ .

ـ فى الحقيقة ، ان القول بالوسط عرفه العرب الاسلام قديما .

اولا ـ فقد جاء ذكره فى القرآن : « والذين اذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك ثوابا » .

ثانيا ـ وللنبى محمد حديث بهذا المعنى : « ان هذا الدين يسر ، ولن يشاد الدين أحد الا غلبه ، فسددوا وقاربوا وأبشروا » .

ثالثا ـ قال على بن أبى طالب ما معناه : خير الامور أوساطها .

رابعا ـ وكان يقال آنذاك « دين الله المقصر والغالى » .

(راجع مثلا كتاب عيون الاخبار ـ ج ١ : ص ٦٢٦ ، وكتاب فلسفة الاخلاق فى الاسلام وصلاتها بالفلسفة الاغريقية ـ ص ٣٤ ـ محمد يوسف موسى) .

(٣) انظر كتاب : المشكلة الاخلاقية والفلاسفة ـ اندريه كرسون ـ ص ٣٧ .

وطبائعها وباختلاف الامم والاديان (١) • وانهم يؤكدون ان هناك خيرا مطلقا وشرا مطلقا وهما معروفان للجميع •

(١) انظر مثلا ج ٤ : ٣٣٣ • تقول المعتزلة بالخير المطلق والشر المطلق (أى ان الافعال فى ذاتها حسنة أو قبيحة) • ان مصدر هذه الفكرة محاورة أوطيفرون •

الفصل الخامس

اللذة والألم

ان الانسان ، لما كان جسمه مركبا من الاخلاط الاربعة المتضادة الطباع « الرطوبة واليبوسة والحرارة والبرودة » ، ولما كانت هذه كلها فى تغير واستحالة ، بين زيادة ونقصان ، فان هذه الزيادة وهذا النقصان يخرجان المزاج تارة من الاعتدال الى الزيادة فى أحد الاخلاط والطباع أو الى النقصان .

وعلى ذلك ، فاللذة : هى رجوع المزاج الى الاعتدال بعد أن كانت خارجة عنه « أى تخلصها من الالم » .

والالم : هو خروج المزاج عن الاعتدال .. (أى انه ليس هناك لذة الا بعد ما يتقدمها ألم)(١) .

والتعب : هو التردد بين اللذة والالم .

والراحة : هى الثبات على الصحة والاعتدال (٢) .

---

(١) هذه الفكرة قريبة من فكرة (افلاطون) . ان (شوبنهاور) قال أيضا باللذة ، لمنع الالم ، ويرى أن اللذة لا تكون كذلك الا بعد أن يسبقها الالم . واذا كان شوبنهاور فى نظرته للالم (تشاؤميا) ، فان اخوان الصفاء لم يكونوا كذلك .

(٢) ج ٣ : ٦٨ ، ٧٤ . ان (ابيقورس) بحث باسهاب فى اللذة والالم .

ان الآلام التى تحسها النفس عند خروج « مزاج » الاجسام عن الاعتدال الطبيعى الى أحد الطرفين (من زيادة ونقصان) لابد لها من سبب • ولنأخذ ، مثلا الجماع • فان مادة (المنى) ويشبهها اخوان الصفاء بـ « زبدة الدم » اذا اجتمعت بكثرة فى الموضع المعد لها ، وجدت الطبيعة عند ذلك ثقلا وتمددا ، فتطلقها الارادة عند ذلك وتخرج ، فاذا خرجت من الانسان خف عن الطبيعة ما كان يجده من ثقل ، فيجد الانسان عند ذاك راحة ولـذة • وكذلك القـول فى الانتقام ، فالانتقام لذة ، لانه خروج من ألم ، اذ أن الغضب يشتعل فى قلب المنتقم ، فاذا تم الانتقام سكن الغضب وهدأ (١) •

★ ★ ★

ان من اللذة والالم ما هو جسمانى ، وماهو روحانى • ولكنهما قد يجتمعان فى وقت واحد ، كالانسان الذى يأكل طعاما يشتهيه ولكن له رائحة تؤذيه • وكمثل من به جرب مؤذ ، يحكه فيجد له لذة وغما فى آن واحد (٢) • وحتى العاشق حين يرى معشوقـه يخونه ، تسره رؤيته له ويجد لذة فيها ، ولكن تلك الرؤية ذاتهـا تغمه وتؤلمه بسبب خيانة الحبيب !

ويتمثل اخوان الصفاء بقول القائل :

ومن نكد الايـام ان صروفهـــا
اذا سُر منها جانب ساء جانب (٣)

★ ★ ★

(١) ج ٣ : ٦٨ ــ ٦٩ ، ٧٤ ــ ٧٦ •
(٢) فى الحقيقة : ألمان بينهما لذة •
(٣) ج ٣ : ٦٨ ، ٧٤ ، ٨١ ، ٨٥ •

يقسم اخوان الصفاء اللذات الى :

(١) لذات شهوانية طبيعية : كالتى تجدها النفس عند تناول الطعام والشراب .

(٢) لذات حيوانية حسية : كالتى تجدها النفس عند الالتئام « كلذة الجماع » ، أو التى تجدها عند الانتقام . هذه اللذات مشتركة بين الانسان والحيوان .

(٣) لذات انسانية فكرية : تجدها النفس عند تصور معانى المعلومات ، وعند معرفتها بحقائق الموجودات . هذه اللذات مشتركة بين الانسان والملائكة .

(٤) لذات ملكية روحانية : تجدها النفس بعد مفارقتها الجسد . هذه اللذات تختص بها النفوس التى تفارق الجسم ، والتى تتخلص من بحر الهيولى(١) .

* * *

وما يهمنا هو أن نعرف ما هى لذات النفس الانسانية وما هى آلامها .

ان النفس الانسانية تتعرض الى اللذات والآلام ، الجسمانية والروحانية ، وان الانسان يكره الالم ويفضل اللذة(٢) . ويقسم

---

(١) ج : ٨٣ ـ ٨٤ . هذا التقسيم شبيه بالتقسيم الافلاطونى . كما أن أثر افلوطين واضح فى القسمين الاخيرين منه .

(٢) يرى ارميا بنتام (١٧٤٨ ـ ١٨٣٢) ان الناس يجتنبون الالم ويطلبون اللذة بالطبع (شأنهم فى ذلك شأن الحيوان) ، =

اخوان الصفاء اللذات التى تجدها النفس الانسانية الى قسمين :

(١) لذات تجدها النفس بمجردها ، دون توسط الجسد • كالتى تجدها عند تصورها حقائق الموجودات من المحسوسات جميعا ، وعند اعتقادها الآراء الصحيحة ، وعند ذكر أعمالها الجيدة الصالحة • هذه اللذات روحية •

(٢) لذات تجدها النفس بتوسط الجسد • ويحددونها بسبعة أنواع :

أ ـ المدركات بطريق النظر « من محاسن الالوان والاشكال جميعا » •

ب ـ المدركات بطريق السمع « من الاصوات والانغام » •

حـ ـ المدركات بطريق الذوق « من العلوم الموافقة لشهواتها » •

د ـ الملموسات « المساعدة المقوية لاخلاط الجسد » •

هـ ـ المشمومات « الملائمة لمزاج أخلاط الجسد » •

و ـ لذة الجماع •

ز ـ لذة الانتقام •

= ولكنهم يمتازون على الحيوان بأنهم (يتبعون مبدأ النفعية) •• اذ أنهم يستعملون عقولهم •

ـ ان هذا المذهب يقول به ابيقورس وهوبز وانصارهما •

ـ وكان افلاطون قد فطن الى حساب اللذات والآلام • ولكن لم يعتبره حسابا كميا مثل بنتام ، ولم يرد الخلقية الى النفعية مثله • (يوسف كرم : تأريخ الفلسفة الحديثة ـ ص ٣١٤ ـ ٣١٥) •

هذه اللذات لا تأتى عند مباشرة الحواس لها فحسب ، بل بعدها أيضا • فالانسان الذى يرى منظرا جميلا • ترتاح نفسه لرؤيته ، وتجد لذة فى ذلك • فاذا غاب ذلك المنظر « بقيت رسوم تلك المحاسن مصورة فى فكر النفس • وكلما لمحت هى ذاتها ونظرت الى جوهرها رأت تلك الرسوم المصورة فى فكرها ـ أو المطبوعة فى ذاتها كما ينطبع نقش الفص فى الشمع [1] فتسر بها وتلتذ وتتذكر تلك المحسوسات » •

أما الآلام فهى نقيض تلك المدركات • كرؤية وحش كاسر ، أو الاستماع الى صوت قبيح ••• الخ [2] •

ان النفس الانسانية تلحقها اللذة والالم بسبب اعتقاداتها وجهلها وأخلاقها وتصرفاتها • فالانسان السيء الاخلاق والاعمال يكون دائما مضطربا متألما ، بعكس الانسان الذى تكون أخلاقه جميلة ومعاملته طيبة ومخالطته عذبة فهو دائما فى قلوب الناس ويذكر بالخير • وأما ما يخص الاعتقادات ، فاعتقاد البعض بأن فى الجحيم ثعابين وأفاعى يأكلون الفساق والكافرين ، وهى اعتقادات مؤلمة لنفوس معتقديها • ولكن اخوان الصفاء يقولون انه بالرغم مما جاء به الانبياء فان هناك معلومات عن الجنة والنار لا يعرفها غير الله والراسخون فى « العلم » • ويرى اخوان الصفاء ان هذه الاعتقادات مؤلمة لانها محيرة [3] •

---

(١) التشبيه ـ نقش الفص فى الشمع ـ أرسطوطالى •
(٢) ج ٣ : ٨٣ ـ ٨٦ ، ٢٧٣ •
(٣) ج ٣ : ٨٦ ـ ٩٠

الفصل السادس

السعادة

مر بنا ان اخوان الصفاء بالرغم من مطالبتهم الناس بالابتعاد عن الشهوات الرديئة ، فهم يعترفون بأن الانسان جبل على محبة البقاء على أتم الحالات ، أى بقاء النفس أبدا تتناول شهواتها ، وتتمتع بلذاتها ، من غير عائق ولا تنغيص[1] ، وانه ـ الانسان ـ يعتبر ذلك نوعا من السعادة • واسلوب الزجر والوعيد قد لا ينفع ، فطالبوا ، لكسر الاخلاق الرديئة ، بأخلاق حميدة ، واعتبروا هذا هو الطريق الوحيد لمن لا يعتبر بالدين ونواهيه •

ومر بنا أيضا أنهم يطلبون من الانسان أن يعمل الخير ، لا بقصد الحصول على مكافأة أو نفع ، بل لاجل الخير نفسه ، ذلك ان الخير يراد من أجل ذاته • وهذا الخير المحض هو السعادة • والسعادة تراد لنفسها[2] •

---

(١) ج ٣ : ٢٧٠

(٢) قال الفارابى ان (السعادة هى الخير المطلوب لذاته) • (كتابه : آراء أهل المدينة الفاضلة) •

هذا وغيره من الافكار الاخلاقية التى عرضناها ، قد يكون نتيجة لقولهم ان الانسان متكون من جسد ونفس ، وهما جوهران متباينان فى الصفات ، متضادان فى الاحوال • واخوان الصفاء يفضلون النفس ويطالبون باهمال الجسد وشهواته ، وقالوا ان فى النفس سعادة وفى الجسد سعادة أيضا ، ولكن سعادة النفس هى السعادة الحقة الدائمة(١) • وكلامهم كثير فى هذا الصدد ، حتى قالوا بالزهد •

★ ★ ★

الزهد :

فالزهد عندهم أساس كل خير ، وأصل كل فضيلة فى الدنيا • والزهد معناه ترك متاع الحياة وشهواتها، والرضا بالقليل ، والقناعة باليسير •

وللزاهد خصال كثيرة ، أو يجب أن تكون له • (وكل واحدة منها تتبعها خصال وفضائل) • ومنها :

(١) العفة والتصوّن : وتتبعها فضائل محمودة منها الكف والورع ، والحفظ والوقار ، والتقى والامانة ، واللين والسكون ، والصحة والسلامة • كما يتبعها حسن الثناء عليهم ، والتزكية لهم ، وثقة الناس بهم ، والاجلال لهم •

(٢) السخاء والكرم ؛ والبذل والمواساة والاحسان والايثار ، والرأفة والرحمة والتودد ، والبر ••

---

(١) ج ٤ : ١١٢

(٣) الحلم والاناة ؛ والتثبت والرزانة ، والتؤدة والرفق ، والوقار والحياء ، والصفح والعفو ، والتغافل والشفقة ..

(٤) الرضا والقناعة ؛ ولا سيما اليأس من الطمع .

(٥) التوكل على الله ؛ والثقة به ، والطمأنينة اليه ، والاخلاص له فى العمل والدعاء ، والتصديق فى الضمير ..

(٦) الصبر ؛ والثبات فى الشدائد بلا اضطراب (١) .

ان الطريق للزهد ليس سهلا يسيرا . ولذا يقولون ان على من يريد أن يزهد فى الحياة الدنيا فما عليه أولا الا اتباع الشرائع ، ومن ثم عليه أن ينزع عن نفسه « القشور » التى تعلقت عليها « من صحبة الجسد » ، وأن يجلو عنها « الصدأ » الذى تركب عليها « من أخلاط البدن وسوء الاخلاق وتراكم الجهالات وفساد الآراء » ، ويلبسها لباس التقوى ، ويبعدها عن الانهماك فى اللذات الجسمية (٢) .

والزهد عند اخوان الصفاء طريق موصل ممهد الى التصوف .

* * *

ان اهمال الجسد ، والدعوة الى الزهد ، هو الطريق الاول الموصل الى السعادة . والسعادة خير شىء يرزقه الانسان (٣) .

ويقسمون السعادة الى قسمين : سعادة دنيوية ، وسعادة أخروية

---

(١) ج ١ ٢٨٢-٢٨٣ . ج ٤ : ١٣٢-١٣٣ .

(٢) ج ١ : ٢٧٩ - ٢٨٣ .

(٣) ج ٣ : ٣٤ . ج ٤ : ١١٢ .

(سعادة الآخرة) . فالدنيوية : هى أن يبقى كل موجود (شخص) فى هذا العالم أطول ما يمكن « على أفضل حالاته وأكمل غاياته » . والأخروية : هى أن تبقى كل نفس ، بعد مفارقتها الجسد ، على أتم حالاتها وأكمل غاياتها[1] .

والسعادة الانسانية فى الآخرة هى الغاية التى أكدها اخوان الصفاء كثيرا . وهم يكررون عبارات الترغيب فيها ويسهبون فى شرح نعيمها[2] . فلس هناك ، فى رأيهم ، لذة للنفوس أحسن من نعيم الجنة وما يرجونه من نيل الثواب والعطاء ، « وما يجدونه من شدة الشوق الى رؤية الله .. لشدة محبتهم اياه وكثرة ذكرهم احسانه »[3] .

ولكن اخوان الصفاء ـ فى ذات الوقت ـ يعترفون بأن هذا الطريق ليس معبدا للجميع ، اذ أن هناك من يراه وعرا شائكا ولا تتقبل نفسه السير عليه ، لان « الانسان مطبوع على أن لا يترك النفع الحاضر العاجل ويزهد فيه ، ويطلب الغائب الآجل ويرغب فيه ، الا بعدما يتبين له فضل الآجل على العاجل »[4] .

★ ★ ★

---

(١) ج ١ : ٢٤٦ ، ٢٥٧ ـ ٢٥٨ . ج ٤ : ٥١ .
(٢) أكد افلاطون وافلوطين ذلك .
(٣) ج ٤ : ٦٤ . هذه كلمات تصوفية .
(٤) ج ٤ : ١٤١ .

ان الذى لا يتبع هذا السبيل ، ولا يعترف بسعادة فى الآخرة ، ولا يعتقد بوجود اله قادر ، فانه يعيش ـ دوما ـ مرتابا مضطربا ، لان نفسه لم تستقر بعد على (الحقيقة) . أما من يعتقد بوجود (الآخرة) ويعلم « أن للعالم بارئا حكيما قادرا حليما جوادا كريما غفورا رحيما ، وأنه قد أحكم أمر عالمه على أحسن نظام ، ورتب الخليقة على أتقن حكمة ولم يترك فيه خللا(١) ، ولا تخفى عليه خافية فى الارض ولا فى السماء ، ولا يرى فى خلق الرحمن من تفاوت ، فان نفسه أبدا ساكنة هادئة مستريحة .. »(٢) .

ومع هذا فهم لم يبعدوا أثر العقل وأهميته فى حرية الاختيار والحكم على الاشياء أو على ما يفرض (على الانسان) من شرائع وأمور اخرى تتعلق بحياته ؛ فقد قالوا بأهمية العقل ، واعترفوا بأنه خير خصال الانسان (٣) .

* * *

من كل هذا ، يتضح :

ان أساس الاخلاق عند اخوان الصفاء هو (السعادة) : سعادة الدنيا والآخرة(٤) ، وسعادة الآخرة أفضل وأكمل وأتم ، وهم

---

(١) (تفاؤل) تام .. يذكرنا بتفاؤل المعتزلة .

(٢) ج ٣ : ٨٧ ـ ٨٨ .

(٣) راجع مثلا ج ٤ : ١٨٨

(٤) يقول هنرى سدجويك (H. Sidgwick) : ان السعادة اعتبرت عند بعض الاخلاقيين القدماء غاية الحياة .

ـ قال افلاطون وأرسطو بالسعادة كغاية لعلم الاخلاق .

ـ ان اخوان الصفاء رسموها ـ السعادة ـ متأثرين بالدرجة الاولى بالدين الاسلامى .

يدعون اليهـا (١) .

وان فلسفتهم الاخلاقية مثالية ، تميل الى الروحانيـة والزهد والتصوف . واذا قلنا (التصوف) فلا نعنى انهم متصوفة ، بل انهم ـ فى الواقـع ـ يقتربون من التصوف ، ويميـلون اليـــه ، كأكثر فلاسفة الاسلام .

---

(١) أولا ـ ترى دائرة المعارف الاسلامية (ج٢٥ : ص ٤٨٧) . أنه ليست هناك فرقة اسلامية تعول على محبة العلم والحكمة فى سبيل السعادة الانسانية فى الحياة مثلما كانت تعول عليهـا جمعيـــة (اخوان الصفاء) .

ثانيا ـ يقول بندلى جوزى (كتابه : من تاريـخ الحركات الفكرية فى الاسلام ـ ص ١٧٠) : ان اخوان الصفاء أول من قال بوجوب تسخير العلم والعمل لسعادة الانسان .

المصادر

تعتبر رسائل اخوان الصفاء (أربعة أجزاء ـ عنى بتصحيحها « خيرالدين الزركلى » ، مصر ، ١٩٢٨) أهم المصادر التى اعتمدنا عليها فى هذا الكتاب • وهناك مراجع كثيرة ، عربية وأجنبية ، يجدها القارىء فى هوامش الكتاب •

فهرست المباحث

	ص
مقدمة : بقلم الدكتور ألبير نصري نادر	٧
كلمة المؤلف	١٣
اخوان الصفاء ـ دراسة تأريخية	١٩
عصر اخوان الصفاء	٢١
تعريف باخوان الصفاء	٢٧
الاعضاء الجدد	٣٣
مراتبهم	٣٣
الزمان	٣٤
الرسائل	٣٥
عدد الرسائل	٣٦
أغراض الرسائل	٣٨
محتويات الرسائل	٣٩
اسلوب الرسائل	٤٠
الرسالة الجامعة	٤٢
فلسفتهم	٤٤
صلتهم بالحركات الاخرى	٤٨

الكتاب الاول : الفلسفة الاجتماعية	٥٩
الفصل الاول : المجتمع	٦٣
أثر البيئة فى المجتمع	٦٣
أصناف الناس	٦٥
التعاون	٦٩
الفصل الثانى : السياسة	٧١
أنواعها	٧١
السياسة النفسانية	٧٣
الدولة	٧٦
الرئيس	٧٩
الفصل الثالث : مدينة اخوان الصفاء الفاضلة	٨٦
الفصل الرابع : المرأة	٩٤
الفصل الخامس : التربية	٩٩
الموسيقى وأثرها فى النفوس	١٠٤
الفصل السادس : التعليم	١١٠
تعريف العلم	١١١
أنواع المعرفة	١١٢
طرق التحصيل	١١٥
التلميذ	١٢٠

ص

المعلم ١٢٤
الفاحشة ١٢٦
تعقيب ١٢٨

الكتاب الثانى : الفلسفة الاخلاقية ١٣٣

الفصل الاول : الاخلاق وأسباب اختلافها ١٣٦

الفصل الثانى : الاخلاق الغريزية والمكتسبة ١٤١

الاخلاق المركوزة ١٤١
الاخلاق المكتسبة ١٤٥

الفصل الثالث : الخير ١٤٨

فعل الخير للخير ١٤٩

الفصل الرابع : الفضيلة ١٥٢

الفصل الخامس : اللذة والالم ١٥٦

الفصل السادس : السعادة ١٦١
الزهد ١٦٢

تصويب

فى الكتاب بعض أخطاء مطبعية لا تخفى على القارىء اللبيب ، منهـا :

صفحة	سطر	الخطأ	الصواب
٩	١١	هاجر	جاهر
١٠	٤	أكثر	أثر
١٥	٢٠	فيما	فما
١٧	٣	آراء	آراءَ
٣٤	الهامش	.... thought and its place	.... Thought and its Place....
٣٦			
٤٤			
٤٧			
٥٢	الهامش	آخر	(تحذف)
٦١	١٥	تتناسهم	تتناساهم
٦٩	الهامش	Mac iver	Mac Iver
٧٣	١٥	تعيسون	يقسون
٩١	٥	مورفى	مور فى
١٠١	٤	Repressed infamtile	repressed infantile
١٠٤	٥	مگدومل	مگدوگل
١١٨	١٧	١١٧٦–١٨٤١	١٧٧٦–١٨٤١
١٢١	٧	ليهيؤه	ليهيؤوه
١٢٧	الهامش	العرت	العرب

Author's Gift

SOCIAL AND ETHICAL PHILOSOPHY

OF

IKHWAN AL-SAFA

BY

FUAD BAALI

Louisiana State University, U.S.A.

Al-Ma'arif Press - Baghdad

1958